◻ الفصل الثالث ◻

البنيـــة الاقتصـاديـــة

للسودان الغربى

1 - الزراعة.

2 - الثروة الحيوانية والسمكية.

3 - المعادن.

4 - الصناعة.

5 - الحركة التجارية.

obeikandl.com

obeikandl.com

على الرغم من أن السودان الغربي قد اشتهر بتجارة الذهب، وبمساهمته الفعالة في تجارة القوافل عبر الصحراء الكبرى، بينه وبين الشمال الأفريقي والسودان الغربي.. فإن خصوصيات أرض السودان الغربي، وبيئتها، ومناخها، أغدقت على البلاد خيرات زراعية، وحيوانية، وسمكية، ومعدنية وفيرة.

فمن هبات الطبيعة للسودان الغربي، أن أراضيه وقعت في حزام السفانة الملائم للزراعة، وتربية الحيوانات، كما أن الطبيعة أنعمت عليها بمصادر المياه الوفيرة، وقوامها الأمطار، ونهري النيجر والسنغال، فضلاً عن خصوبة التربة، ووجود المعادن الثمينة، وفي مقدمتها الذهب.

وقد وضف عدد من حكام السودان الغربي، في فترة إمبراطورية سنغاي هذه الإمكانيات الطبيعية، بطريقة مثلى، حتى أصبحت تمثل العمود الفقري، للاقتصاد الوطني.

وعليه.. سنتناول في هذا الفصل الذي يعني بدراسة الأحوال الاقتصادية، في السودان الغربي، في تسلسل، ستة موضوعات، هي: الزراعة، والثروة الحيوانية والسمكية، والثروة المعدنية، والصناعات المحلية، والتجارة الخارجية، ثم الداخلية.

الزراعة :

تمثل الزراعة الحرفة الرئيسية، والمصدر الأساسي لعيش الغالبية العظمى، من أهل البلاد، وذلك لوجود معظم الأقاليم المأهولة بالسكان، في منطقة السفانا، التي تتمتع بخصوبة التربة ووفرة المياه. وقد ساهم عدد من حكام السودان الغربي، وفي طليعتهم أسكيا الحاج محمد الكبير في تطوير الإنتاج الزراعي،

وإدخال أساليب جديدة لاستصلاح الأراضي وتحسين الحبوب، ورفع معدلات الإنتاج، مستفيداً من صلات بلاده الوثيقة بالشمال الأفريقي[1].

وتتمركز الزراعة بشكل عام على جانبي نهر النيجر، وقد أورد الحسن الوزان أن نهر النيجر يشق أرض السودان، وأن أجمل أرض السودان امتدادها على طول نهر النيجر[2]، وأفاد مارمول أنه ينبع من جبال لوم، وطوله أربعة آلاف ومئتان 4200 كم[3]. ونهر السنغال يصب من جبال فوتا جالون، وطوله الف وسبعمائة كم. وقد أضفى نهر النيجر على التربة خصوبة، وخاصة في فترة الطمي، وقد أفاد موسى بن أحمد السعدى في هذا الخصوص قائلاً: «في ليلة الجمعة رابع شعبان في العام 1011 هـ/ 1602م، وقع البحر في معدل، كان ذلك في سبعة يناير، عندما كان الباشا سليمان في الحكم ، ووقع أيضًا في ثاني دجنبر عام اثني عشر وألف 1012 هـ/ 1603م وفي ليلة الأحد رابع عشر من شهر شعبان، عام أربعة عشر بعد ألف 1014 هـ/ 1605م. كما وقعت زيادة في معدله في الثاني عشر من دجنبر زمن حكم الباشا محمود لنك»[4].

يدل فيضان النهر على كثرة الأمطار، في السنوات السالفة الذكر، حيث ينعكس ذلك على خصوبة التربة وزيادة كمية الإنتاج الزراعي.

والزراعة في السودان الغربي هي عبارة عن مزارع للقطاع الخاص والعام، وكان لحكام سنغاي مزارع خاصة بهم، يعود منتوجها إليهم، فعلى سبيل المثال مزارع السلطان أسكيا داوود، الذي كان يشغل فيها عبيده، ويشرف عليها رئيس خدمه، ويحصل من المزرعة الواحدة على ألف صنية[5].

---

(1) ـ موسى بن أحمد السعدي ، مخطوط ورقة 120.

ZAKARI DRAMAN ISSIFOU ; Afrique Noire Dans les Relatin Internationales au . VI e siecle Editions Karthala; Paris 1982 ; p 154

(2) ـ حسن الوزان، المصدر السابق، ج 2 ، ص 30.

(3) ـ مارمول، المصدر السابق ، ج 3 ، ص 183.

(4) ـ موسى بن أحمد السعدي، مخطوط ورقة 122، وعبد الرحمن السعدي المصدر السابق، ص ص 215-217.

(5) ـ محمود كعت، المصدر السابق، ص ص 95-96.

وكان حكام سنغاي يمنحون أتباعهم مزارع، وهذا ماحدث لألفا محمود كعت عندما أراد تزويج بناته وأولاده، إذ طلب من أسكيا داوود أن يمنحه مـزارع لأبنائه[1].

وكانت الزراعة في القطاع الخاص مقسمة، حسب نوعية المزروع، فهناك مزارع خاصة بالأرز، ومما يؤكد ذلك مزرعة الأرز في أرض (بون) التي منحها أسكيا محمد بان إلى شيخ يدرس طلاب العلم [2]، وفي المقابل كانت توجد مزارع لعامة الناس وهي عادة ماتكون صغيرة. وهذه الرسالة التي نوردها تدل على ذلك، وهي من رُقية بأرض السودان الغربي إلى زوجها الحاج عبد الله بن الحاج الصالح الوغلامي، بخصوص اليهودي موشـى، الـذي تـركه وكيلاً، فباع مزرعتهم.

نقتطف فقرات منها : «[بياض] بقى بذلك مقام الحاج عبدالله بن الحاج الصالح الوغلامي، سلام الله عليك من زوجتك رقية بنت، ومن عند أولادك عبد الله وأخته الكبيرة وحدجه... وأما إلهام الصالح فهو بمدينة مكناس، مع خاله التهامى، وأعلم بأني فعلت لنا فعل الرجال، وأنت منهم، لأنك قدمت ولأخبرتنا بخبرك لميت ... ولأرسلت لنا جواباً، وأما اليهودي موشى الذي تركته وكيلاً علينا، فهو عمل لنا بحق التوكيل... حاز الأرض وحرثوه وقطف الثمر، وأرد بيعه للغير وحنا رزقنا على الله... وبعد ذلك قام اليهودي وقال لنا: حين صير الاحمل، وقال : لنا ندفع له ننفق علينا، ولم يجد بيدنا شيء، وقام وباع لنا دارنا وخرجنا منها ورحلنا لبلاد تبعصامت ولازلنا فيها... ولأوجدنا على مانصرف على نفوسنا... "[3].

(1) محمود كعت، المصدر السابق ، ص106.

Dipo ; A.H. : L'Afrique Noire pre-colonial; paris; 1956; p

(2) محمود كعت، المصدر السابق، ص 130.

(3) رقية تبعث برسالة إلى زوجها الحاج عبد الله بن الحاج الصالح الوغلا.. بخصوص اليهودي موشى، الذي تركه وكيلاً عليهم قد باع مزارعهم، مخطوط مكتبة أحمد سالم الشود بتنبكت، دون تصنيف، ورقة واحدة.

من خلال النص السابق، يتضح الآتي :

1 - انتشار الزراعة في السودان الغربي.

2 - تنوع المزروعات في المزرعة الواحدة.

3 - تغلغل اليهود في المنطقة وكسب ثقة بعض الأهالي بأن أصبحوا وكلاء على أعمالهم.

4 - الأثر المغربي في السودان الغربي؛ فالحاج عبد الله بن الحاج الصالح الوغلامي مغربي الأصل.

وهذه الرسالة أخرى تؤكد الاهتمام بالزراعة في السودان الغربي، نورد فقرات منها : نصها "الحمد لله وحده ولايدوم إلا ملكه فمن عبد الله بن حسون إلى ابن أخيه وقرة عينه محمد سالم بن عمار السلام عليك، ورحمة الله تعالى وبركاته ومجيبه إليك أوجب الله لنا ولك الخير ووقانا وإياك المكروه والضير، لتعلم أعلمك الله بخير وعافية أننا لاباس علينا جميعاً لله الحمد، وعسى أنت كذلك... والذي يوكد به عليك غاية التاكيد ازرع وزرع وزرع وزرع.... ولاتقبض درهمًا ولادينارًا، الجميع اجعله في الزرع ... ولكن الوصية تزيد في الفهم»[1].

نستنتج من خلال هذه المراسلة الآتي :

1- الاهتمام بالزرعة من طرف الأهالي.

2 - انتشار الزراعة.

3 - توضيف جلّ الأموال واستثمارهم في زراعة الأرض بالسودان الغربي.

وكانت الزراعة منتشرة في عدد من مناطق السودان الغربي، حيث كان جزء

(1)- عبد بن حسون يبعث برسالة تجارية الى محمد سالم بن عمار بأرض السودان، تاريخها حسب اتفاق الباحثين، بمركز أحمد بابا التنبكتي، وهم أحمد سالم الشود، وجبريل دكوري، وعمر سيه، دون تاريخ، ما بين 1600 الى 1700.

منها يعتمد على مياه الأنهار، والباقي يعتمد على الأمطار والعيون، وخاصة في المناطق البعيدة عن نهر النيجر.

أما الزراعة في تنبكت.. فإنها تعتمد على مياه نهر النيجر والأمطار، وقد أفاد مارمول أن المدينة حباها الله بنهر النيجر[1]. وقد ذكر كعت أن الزراعة في المدينة، تعتمد على مياه الأمطار، ومايوضح ذلك أن تنبكت في عام تسعة وتسعين وتسعمائة 999 هـ/ 1590م كانت مطيرة، فقد طلب من القاضي عمر أن يعطيه وأصحابه داراً، نظراً لهطول المطر، وأن معه بارود السلطان فقد يهلك من المطر[2].

أما نظام الزراعة الذي كان متبعاً، فهو نظام المزارع، وهذا ما أفاد به موسى السعدي في قوله: «توفي الإمام أحمد بن الإمام صديق في مزرعة (كُريع) وحمل إلى تنبكت وصلي عليه صلاة الجمعة»، كان ذلك في شهر رمضان عام 1005 هـ/ 1596م[3]. الأمر الذي يؤكد وجود نظام المزارع.

وأرض تنبكت صالحة للزراعة، يزرع بها القمح، والشعير، والذرة، والبطاطة واللفت والخص، وأغلب الحبوب والخضروات[4].

أما الزراعة في مدينة جني، فيزرع بها الشعير والأرز والقطن، وأفاد الوزان بأن البلدة، لاتنبت بها الأشجار المثمرة، ولاوجود لأية شجرة فاكهة[5].

وأمام ماذهب إليه الحسن الوزان ، فإني أستبعد ماأورده، وذلك لعدة أسباب هي:

---

(1) ـ مارمول ، المصدر السابق، ج 3 ، ص 203.

(2) ـ محمود كعت، المصدر السابق، ص 156.

(3) ـ عموسى بن أحمد السعدي، مخطوط ورقة 90.

(4) ـ أحمد بلعراف التنبكتى، أهمية التاريخ، مخطوط، ورقة 14 . ومارمول ، المصدر السابق 3ج ، ص 203.

Charles Monteil: une cité sondamaise Djenné Metropole du delta central du Nigen; société D'edition gographiqe; Maritimes et colonial parial paris 1931; p 199.

(5) ـ الحسن الوزان، المصدر السابق، جـ 2 ، ص 163.

1 - لقد زرت المدينة عدة مرات، ووجدت بها عدداً من أشجار الفاكهة، التي كانت معروفة في عهد الحسن الوزان.

2 - أن التربة والمياه التي في عهد الحسن الوزان هي نفسها اليوم .

3 - لعل حسن الوزان لم يزر جني، بل سمع بها؛ فأورد ماتناهى له.

أما الزراعة في مدينة كاغو، فقد كانت تعتمد على مياه نهر النيجر، والأمطار، ومياه الآبار ذات المياه العذبة، وكان السكان يزرعون بها الحبوب، من شعير، وقمح، وأرز، وقطن، وكميات ضخمة من البطيخ، والخيار، والقرع الجيد. كما توجد لديهم جبال خالية من السكان، مكسوة بالغابات، مليئة بالعيون، ويوجد بها شجر البرتقال والليمون البري، كما تنتج فواكها. قال عنها الوزان : لايختلف مذاقها عن مذاق الشجر المغروس[1].

وفي تندرم كانت الزراعة تعتمد على الري من مياه الآبار، وكان قد حفر فيها اليهود ثلاثمائة وثلاثاً وثلاثين بئراً 333 ، ويتفاوت عمق البئر من واحد لآخر، فمنهم من يصل عمقه إلى مائة وأربعين ذراعاً، ومنهم من يصل إلى مائتى ذراع، وقد يصل عمقه الى ستين ذراعاً.

وأهل تندرم لهم طريقة في حفر الآبار، فعندما يكتمل البئر بالحفر، يحضرون حزماً من حطب الشبرثبر، ويضعونه في البئر، ويأتون بقوالب بلنغة فيصبونها فوقها، ثم يوقدون عليها النار، فتذوب وتصير متماسكة، ثم يتركونها إلى أن تبرد، ويصبون عليها الماء، أما جوانب البئر فتسطح بالطين الذي أخرج من البئر.

يستفاد من هذه الآبار، في زراعة شجر السلق، الذي يباع للتجار بأثمان عالية، وما أفاد به كعت أن هذا الشجر، لاينمو ويثمر إلا على مياه هذه الآبار، التي لاينقص عمقها عن ستين ذراعًا[2].

---

(1) ـ الحسن الوزان المصدر السابق، ج 2 ، ص ص 169ـ 173.

(2) ـ محمود كعت ،المصدر السابق ، ص 63.

وعلى مايبدو أن العمق الذي يفوق الستين ذراعاً، به مادة الجبس التي تتجمد على تربة الشجرة، وتمنع عنها تحلل المواد الغذائية.

أما الزراعة في أقدز، فتعتمد على الأمطار والآبار، وتربتها صالحة للزراعة، وتزرع بها الحبوب والفواكه، فلديهم فاكهة الدوم والكرم، وقد أفاد بذلك الشيخ عثمان بن علي بن أبي بكر الحضيري الفزاني، بأن زراعة الكروم، كانت في أقدز في مخطوطته التي نقتطف جزءاً منها، قال :« فيقول العبد الفقير الفاني عثمان بن علي بن أبي بكر الحضيري الفزاني . . . زرعت الكرمة التي في دار سكناي بأقدز، وهي دار بنات المرحوم الحاج سالم بن عبد الرحيم . . . يوم سبعة وعشرين بتقديم السين يوم الأربعاء عند الضحى، عام تسعة بتقديم التاء وسبعين، بتقديم السين بعد تمام الألف من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى السلام، وولدت تلك الكرمة في أواخر ربيع الأول عام الثمانين والألف صحيحًا صحيحًا بالمعاينة، وأكلت ثمرتها يوم العشرين من جمادى الآخر بحمد الله وحسن عونه»[1].

كما أن هناك نهضة زراعية في إقليم زكزاك، حيث ينقسم الى جزئين: جزء كله سهول، وجزء جبال، وتتوفر فيه المياه الكثيرة وينتج كميات من الحبوب[2]. أما إقليم جوبر، فينتج الذرة، والأرز الجيد، والفلاحون يستفيدون من فيضان النهر؛ بقصد تسميد التربة. وفي إقليم الولوف. . فإن نهر السنغال يغذي التربة وإنتاجه من القمح والشعير قليل[3].

أما في كاتسينا فإن طبيعتها جبلية وعرة، يزرع بها الشعير والدخن، وفي

---

(1) - عثمان بن علي بن أبي بكر الحضري الفزاني، مخطوط ، مكتبة محمد الحضري بأقدز، تاريخها 1080هـ/ 1669م، ولامن بن أحمد بكدا، تاريخ أقدز، مخطوط، مكتبة الحاج عبد القادر التبيني، دون تصنيف، مخطوط، ورقة 14.

(2) ـ حسن الوزان ، المصدر السابق، ج 2 ، ص 174، ومارمول، المصدر السابق جـ 3 ، ص ص208 - 209 .

(3) ـ مارمول، المصدر السابق، جـ 3 ، ص ص206 - 215 .

زنفري يزرع الأرز والدخن والقطن[1]. وفي سلى يكثر عندهم شجر الأبنوس، ومنه يحتطبون[2]، أما شجر الزيتون.. فيكثر في مدينة سهل، إحدى مدن السودان الغربي، فقد أشرف على زراعته الإمام (عبد الله الأندلسي)[3]، الذي تولى أمير المدينة في عهد سني علي، فقد زرع ألفاً وثمانمائة شجرة زيتون[4]. وفي بلدة كُوبر يزرع الأرز، ونوع من الحبوب يزرع عند فيضان النهر، حيث يغمر السهول ويزرع الحب على الماء، ويكثر بها العسل، وقد ضمها أسكيا الحاج محمد لممتلكاته[5].

وفي مدينة كوكو، يكثر عندهم الفقوس العنابي، الذي أشار إليه ابن بطوطة بأنه لامثيل له، والملوخية البرية والثوم، والكرنب والباذنجان. كما يكثر عندهم نبات القرعة، فيستعملونه في غذائهم، ويصنعون منه أواني يزينونها بنقوش، ويستعملونها في حياتهم اليومية، وقد أفاد ابن بطوطة، أن صحون القرعة، كان يحمل فيها طحين الغرتي، إلى عدد من مناطق السودان الغربي[6].

كما تربعت على جزء من أراضي السودان الغربي، وخاصة في جنوب مدينة جني، وجنوب غرب قندام، وسيقو، وشرق كني وطاوه، غابات كثيفة، بها أشجار مثمرة وغير مثمرة، وقد أورد ابن بطوطة أن القافلة الواحدة تستظل تحت شجرة واحدة، وهذا يدل على ضخامتها، وأن النساج ينسج غزله بداخلها إلى

---

(1) حسن الوزان، المصدر السابق، جـ 2 ، ص ص 173 - 174.

(2) الاستبصار، المصدر السابق، ص 217.

(3) عبد الله الأندلسي، هاجر أجداده من الأندلس إلى منطقة السودان الغربي، وكان له سبعة أولاد وثلاث بنات، وهم: محمود وسغنغ ومصطفى وسكلع وعثمان وبغيغ وإسحاق، ومن البنات عاتكه وفاطمة وحسنة، للمزيد انظر محمد محمد المفتي (مرحبا)، التاريخ الخاص بالتواتر، مخطط ورقة 15 .

(4) محمد محمد المفتي (مرحبا)، التاريخ الخاص بالتواتر، مخطوط، ورقة 15 - 16.

(5) حسن الوزان، المصدر السابق ، ج 2 ، ص 171.

(6) ابن بطوطة، المصدر السابق، ص ص 679 - 680، ومارمول المصدر السابق ، ج 1، ص 53.

آخر ذلك، وبها أشجار مثمرة أشبه بالتفاح، والمشمش، والخوخ، وهناك أشجار يستخرج من ثمارها دقيق، يستعمله التجار في المبادلات التجارية، وفي الأسواق[1]. كما كانوا يجمعون من الأرض حبوباً شبيهة بالفول، يقلونها مع الغرتي ويأكلونها، وهي من أفضل الأكلات[2]. كما تكثر لديهم فواكه مثل الجميز، وثمار تُعرف (بتادمون) هي طيبة المذاق حسب تعبير القلقشندي[3].

كما توجد لديهم أشجارٌ تعرف بالزيزور، وأخرى بالقوص، وهي تشبه السفرجل، وأشجاراً تشبه شجرة الليمون، يستخرج منها مخلوط يشبه دهن السمن، يستخدم في وقود السراج، وصنع الصابون، وطلاء المنازل، كما أن أرضهم تنتج نبات الكولا، والتبغ الذي يعد من المحاصيل الزراعية الهامة، وكانت الكولا تستعمل في مبادلاتهم التجارية[4].

لقد كانت تفرض ضرائب على المنتوجات الزراعية، من قبل حكام السودان الغربي، فقد كان لأسكيا الحاج محمد رجل مخصص لجمع الضرائب عن المحاصيل، وأعلى قيمة للضريبة ثلاثون (فتاً) لايتجاوزها، وتمنح الغرامة حسب الاستطاعة ولاتفرض، فمن المزارعين من يدفع عشر أفتات، ومنهم من يعطي عشرين، ومنهم مادون ذلك. . . وهكذا إلى الثلاثين[5].

من خلال العرض السابق، يتضح أن الزراعة كانت من المصادر الأساسية، في حياة حكام السودان الغربي وعامة الناس، وأن أرض السودان الغربي كانت

---

(1) ـ ابن بطوطة، المصدر السابق، ص 681 ومارمول المصدر السابق ، ج 1 ، ص 53، والهادي المبروك الدالي، مملكة مالي الإسلامية وعلاقاتها مع المغرب وليبيا، المرجع السابق ، ص 69.

(2) ـ ابن بطوطة ، المصدر السابق ، ص 681.

(3) القلقشندي، المصدر السابق، جـ 5 ، ص 288 .

(4) ـ ابن بطوطة المصدر السابق ص 674، والعمري، المصدر السابق، ص 62، والهادي المبروك الدالي، مملكة مالي الإسلامية وعلاقاتها مع ليبيا والمغرب، مرجع سابق، ص 70 .

(5) - لامن بن احمد باكت تاريخ أقدز، مخطوط، ورقة 16.

خصبة، والأمطار متوفرة ونهر النيجر يزداد نشاطاً، بزيادة تهاطل الأمطار هذا عن الزراعة كمورد من موارد السودان الغربي.

الثروة الحيوانية والسمكية :

ضمت بلاد السودان الغربي ثروة حيوانية، شملت الحيوانات الأليفة والبرية. فقد اهتم السكان بتربية الحيوانات الأليفة والاستفادة منها في حياتهم اليومية.

مارس بعض مواطني السودان الغربي حرفة صيد الحيوانات البرية، مثل الفيلة، فهي توجد بكثرة في الغابات الكثيفة في جنوب البلاد، يصطادونها بالسهام، ويقتلونها، ويستفيدون من لحومها، وأنيابها ويبيعونها للتجار المغاربة. كما توجد لديهم من الحيوانات البرية، الزرافة التي تعيش في الغابات والصحارى؛ فالصيادون يصطادون الزرافة الصغيرة لسهولة الحصول عليها، ويستخدمون جلودها في الزينة. ومن حيواناتهم البرية: الأسود، والبقر الوحشي، والقردة، والدمان، والغزلان والضباع والماعز الوحشي ووحيد القرن والنمور، التي يسفيدون من جلودها في حفظ ملابسهم، ويطلقون عليها الشكاير[1]. أما الأرانب، والقنافذ، والسلحفاء، والضب، والحرباء.. فقد استخدمها أهل السودان الغربي في التداوي من السحر[2].

أما الحيوانات المستأنسة.. فقد أولاها سكان السودان الغربي عناية خاصة، وقد اهتموا بتربية الإبل، التي استفادوا من لحومها، وألبانها في غذائهم، ووبرها، وجلدها، في صناعة بيوتهم ولباسهم. كما استخدموها في نقل

---

(1) الإدريسي، المصدر السابق، ج 1، ص ص 20 - 21، والحسن الوزان، المصدر السابق، ج 2، ص 269، ومحمود كعت، المصدر السابق، ص 144، ومارمول، المصدر السابق، ج 1 ص ص 69 ـ 87.

Kayser et Viuers, A. : Les animaux. protégés de L'Afrique Noire; Dakar 1961 . P : 41.

(2) محمد محمد المفتي (مرحبا)، التاريخ الخاص بالتواتر، مخطوط، ورقة 50.

أحمالهم وتجارتهم وخزانات للمياه، فالبدوي يمثل الجمل عنده أغلى شيء[1]، وكانت بأعداد هائلة فأسكيا الحاج محمد ضيف الشريف أحمد الصقلي بأن نحر له مائة من الإبل[2]، الشيء الذي يترجم لنا مكانة الشريف أحمد الصقلي السامية والروحية باعتباره شريفًا. وأولى السكان عناية خاصة بتربية الأبقار والإكثار منها، وقد اختصت بذلك قبائل الفلان دون غيرها بهذه المهمة، وكان منتشراً على حافة الصحراء، وفي مدن كاوكاو وكوبر وأقدز[3]. ولوفرته منح صاحب سنقر فندنك بُوبُ، وُوُل كين، عليا التلمساني ست آلاف بقرة، في مقابل صلح بينهم، على أن يرجعه إلى بلد[4]. فهذا حاكم بلده أعطى هذا العدد، فما بالك بحكام المدن الكبيرة!!

كما اهتموا بتربية الأغنام والماعز الذي يربى في مناطق الشمال، أكثر من الوسط والجنوب، حيث يأتي في المرتبة الثانية، بعد الأبقار، من حيث الكثرة ، فخديم أسكيا داوود المدعو (زنك)، كان له في دند سبعة سراح بقر، وثلاثون سارحاً للغنم. هذا خديم أسكيا داوود له هذا العدد، فما بالك بأسكيا داوود نفسه. وكان السكان يستفيدون من الماشية بأنواعها، من حيث اللحوم، والألبان ومشتقاتها[5]، أما الخيول فكانت تستورد عن طريق التجار العرب المغاربة إلى

(1) زكريا بن محمد ابن محمود القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد، بالمصدر السابق ص 18 - 19 ، وعماد الدين إسماعيل محمد بن عمر، تقويم البلدان، المصدر السابق، ص 137، والقلقشندي، المصدر السابق، ج 5 ، ص 286، ونعيم قداح ، أفريقيا الغربية في ظل الإسلام، المرجع السابق ، ص 128.

ca Da Mosto : Relation des voyage a la cote accidentale de l'Afrique, paris P : 53.

(2) ـ محمود كعت ، المصدر السابق ص 18.

(3) ـ أحمد بلعراف التنبكتى، أهمية التاريخ، مخطوط، ورقة 20 ، والحسن الوزان، المصدر السابق، ج 2 ، ص: 171 - 172 - 178.

(4) ـ المختار بن محمد بن المختار بن أحمد يبعث برسالة إلى أمير المؤمنين الشيخ أحمد بن محمد ابن أبي بكر بن سعيد، مخطوط ، ورقة2، ومحمود كعت ، المصدر السابق ، ص 195.

(5) ـ عبدالرحمن عمر التواتي، فهرسة لأشياخه، مخطوط، مكتبة محمد الساكت بزندر، دون تصنيف، ورقة 37، ومحمود كعت، المصدر السابق، ص 195.

المنطقة، وقد أكد ذلك القلقشندي بقوله: «...وتجلب الخيل العراب إلى ملوكهم ويتغالون في أثمانها...»[1]، والخيول عندهم مرتفعة الثمن، وقد اقتصر ركوبها على الملوك وكبار الموظفين، وكانت تستخدم في القتال، وذلك لسرعة عدوها[2].

كما توجد لديهم الحمير بكثرة، حيث يستعملها السكان لقضاء حاجاتهم داخل البلاد، ومن بين الثروة الحيوانية البغال، وقد شاع استعمالها، فهي أكثر تحملاً للأثقال من الحمير، وقد استخدمها منسا موسى، في حمل زوجته وذهبه في رحلته للحج[3].

كما كانت منطقة السودان الغربي، تزخر بمختلف أنواع الطيور، منها: الداجنة والبرية، ويشير القلقشندي إلى وجودها في ذلك الوقت قائلاً: «وبها من الطيور الدواجن، الأوز والدجاج والحمام»[4]، وكان الدجاج يمثل جزءاً هاماً في منازل سنغاي، على أيام الأسكيين، وكان بيض الدجاج، ولحومها يمثل غذاءً مهماً في حياة السكان[5].

كما يوجد في البيئة السودانية طير النعام، الذي يستفاد من ريشه بأن يصدر

---

(1) ـ القلقشندي، المصدر السابق ، ج 5 ،ص 287.

(2) ـ احمد بلعراف التنبكتى ، أهمية التاريخ، مخطوط، ورقة 21 وعبد الرحمن بن عمر التواتي، مخطوط، ورقة 63 ومحمود كعت ، المصدر السابق ص 108، وسليمان الباروني : الأزهار الرياضية في أئمة وملوك الأبضية ، المصدر السابق، ص 184.

Henri Barth; voyages et Decouvertes dans L'Afrique septentrionalle et central; vol I ; Paris A bonné Librair 1860 ; p 28.

(3) ـ عبد الرحمن بن عمر التواتي، مخطوط، ورقة 63، ومحمود كعت، المصدر السابق، ص 36.

(4) ـ القلقشندي، المصدر السابق، ج 5 ، ص 288.

(5) - P L . Dekeyser et Drivot: les oiseaux de L'ouest Africain; Dakar; 1966; p114.

إلى خارج السودان الغربي، الشيء الذي يدر عليهم أرباحا طائلة، كما كانوا يستخدمون رقبة جلد النعامة في حفظ الذهب[1].

كذلك من الطيور البرية، التي احتضنتها أرض السودان الغربي الباز، والعقاب والنسور، وقد أفاد كعت في ذلك قائلاً: « وإن أدركك خصيانه هنا قتلوك وصيروك غذاء العقاب والنسور»[2].

وكانت توجد لديهم التماسيح بكثرة في نهر النيجر، ويبلغ طول الواحد أحياناً حوالي اثني عشر ذراعاً، وقد أفاد ابن بطوطة بأن التماسيح خطيرة، وأن أحد أهالي مالي، وقف حائلاً بينه وبين النهر، خوفاً عليه من التماسيح. وكان السكان يمارسون صيدها جماعات، فيبيعون جلودها في الأسواق بأثمان مرتفعة، وكان ملوك سنغاي يقتنون أذنابها فيزينون بها مساكنهم وقصورهم، وكذلك كان يفعل أثرياء المجتمع[3].

وكان بأرض السودان الغربي عدد من الحشرات، مثل الناموس الذي كان يستخدم في السجون وهو نوع من العقاب، وقد سجن أسكيا الحاج محمد الكبير في سجن يكثر فيه الناموس[4] وقد سبقت الإشارة إلى ذلك. ومن الحشرات الجراد كان بأعداد هائلة، وهذا ماعبر عنه عبد الرحمن السعدي في قوله: «خيل أسكيا إليهم كجراد منتشر»[5] كان الجراد يستخدم كغذاء للسكان بأن يحمص، ويؤكل أو يجفف ويطحن ؛ وإلى يومنا هذا يستعمله سكان السودان الغربي. ومن الحيوانات التي كانت منتشرة، الأفاعي والعقارب والحيات[6]. وعقارب مدينة تكدا من أخطر العقارب، قال عنها ابن بطوطة :« وعقاربها تقتل من كان صبياً

(1) ـ موسى السعدي ، مخطوط ورقة 60 حسن الوزان، المصدر السابق، ج 2 ، ص 269.

(2) ـ محمود كعت، المصدرالسابق، ص 137.

(3) ـ ابن بطوطة ، المصدر السابق ، ص وحسن الوزان، المصدر السابق، ج 2 ، ص 269.

(4) ـ عبد الرحمن السعدي، المصدر السابق ، ص 89.

(5) ـ نفسه، ص 127.

(6) ـ محمود كعت، المصدر السابق ، ص 50.

. . . وأما الرجال فقلما تقتلهم، ولقد لدغ يوماً، وأنا بها ولد للشيخ سعيد بن علي عند الصباح فمات لحينه»[1]، ومن الحشرات النافعة في السودان الغربي النحل، حيث إن تربيته تمارس على نطاق واسع في المنطقة، وخاصة أقدز، وتُصنع له مخابىء تحت الأشجار، وكان العسل يدخل في تغذية الكثير منهم، وفي علاجهم، كما يبيعون كميات منه إلى التجار المترددين على المنطقة[2]. أما عن الثروة السمكية. . فإن نهر النيجر حبا أهله بثروة سمكية هائلة، منذ القدم، وقد تحدث في ذلك كعت، وعَدَّد أنوعاً من الأسماك منها الكبيرة والصغيرة. وكانت حرفة صيد الأسماك من الحرف المهمة، التي مارسها بعض أهالي السودان الغربي، وكان أهل كرمن من الزناجية، ينزلون بموضع على نهر النيجر، يدعى سنشركي، يصطادون فيه الأسماك، وتعرف عندهم حيثان بدع[3].

وفي إقليم الولوف، يعيش عدد وافر من الأسماك المختلفة الأحجام والألوان، وحيوانات مائية، مثل فرس النهر والثعابين البحرية ذات الأجنحة، إلا أنها صغيرة جدا.

استخدم أهل السودان الغربي الأسماك في غذائهم، فإما إن يتناولوها طرية أو بعد تجفيفها، وكانوا يصدرون جزءاً منها إلى الشمال الأفريقي؛ فتُباع في أسواقهم بأثمان مرتفعة[4].

لقد برزت أهمية الاستفادة من الثروة الحيوانية في مجال الزراعة والنقل، فاستخدمت الحيوانات في الحرث، والحصاد، ونقل المحاصيل من مكان الإنتاج للأسواق الداخلية والخارجية، وكانت الإبل أهم وسيلة للنقل عبر الصحراء

---

(1) ـ ابن بطوطة، المصدر السابق، ص ص 696 - 697.

(2) ـ لامن بن أحمد بكدا، تاريخ أقدز، مخطوط ورقة 20 ، مارمول، المصدر السابق، ج 3 ، ص 207 .

(3) ـ محمود كعت، المصدر السابق، ص 119 .

(4) ـ موسى بن أحمد السعدي، مخطوط، ورقة 288 والبكري، المصدر السابق، ج 1، ص 51 ومارمول، ج 3 ، ص 215.

لمناطق الشمال الأفريقي، كما استفاد أهالي السودان الغربي، من بعض منتوجات حيواناتهم، في مجال التصنيع، كدباغة الجلود، السروج والأكياس وبيوت الشعر وسقوف المنازل والألبسة.

المعادن :

كان لمنطقة السودان الغربي ثروة معدنية، يفوق عائدها الاقتصادي الثروتين السابقتين، وتشمل معادن جد مهمة، وهي: الذهب والملح والنحاس والكحل وغيره. ومعدن الذهب من أهم المعادن، التي حظيت بالعناية الفائقة، من قبل حكام السودان الغربي، وفي مقدمتهم السلطان أسكيا الحاج محمد الكبير سلطان سنغاي، نظراً لأنه يمثل العمود الفقري لاقتصاد السودان الغربي.

ويوجد الذهب في أعالي نهر النيجر، الذي يجرفه معه عند انحداره السريع من مناطق الجبال العالية، حيث يتسع مجراه عند جاو وتنبكت، فيفيض على الجوانب في موسم الأمطار[1]، كما يوجد كذلك في بلدة ونقارة، التي تقع اليوم إلى الجنوب الغربي من العاصمة باماكو بجمهورية مالي، وقد أفاد الإدريسي واصفاً إياها بأنها : «بلاد التبر المشهورة بالطيب والكثرة، وهي جزيرة طولها ثلاث مائة ميل، وعرضها مائة، وخمسون ميلاً والنيل [نهر النيجر] يحيط بها من كل جهة في سائر السنة، فإذا كان في شهر غشت، وحمي القيظ، وخرج النيل وفاض، غطى هذه الجزيرة ... وأقام عليها مدته ... ثم يأخذ في الرجوع، فإذا أخذ النيل في الرجوع والجزر، رجع كل من في بلاد السودان المنحشرين إلى تلك الجزيرة، بحاثاً يبحثون طول أيام رجوع النيل، فيجد كل إنسان منهم في بحثه هناك ما أعطاه الله سبحانه كثيراً أو قليلاً من التبر...»[2].

---

(1) Mauny. R. Tableau deographique de L,ouest Afrixain au Moyen Age; Dakar; 1961 p 295.
وزبادية ، مملكة سنغاي، المرجع السابق ص 188

(2) - الإدريسي، المصدر السابق، ج 1، ص24 .

كما يوجد الذهب في (بمبوك)[1]، الذي يقع إلى الجنوب الغربي من العاصمة باماكو، بحوالي ثلاثمائة كيلومتر، وهو من المناجم المهمة في السودان الغربي[2]؛ كذلك يوجد الذهب في بلدة سيكا سو، التي تقع إلى الجنوب الغربي من العاصمة باماكو، وتبعد عنها بمائة وخمسين كيلومتراً،[3] يوجد الذهب في بلدة موشي، ويقوم بإخراجه أبناء المنطقة، ويوجد أيضا في مدينة برسني بكميات وفيرة، ومعروفة لدى أهالي السودان[4]. كما يتوفر في بلدة كرنرف، ومدينة غياروا، حتى أن ملكها له حجر ضخم من الذهب يجعله أمامه فإذا ما زاره أحد الملوك، يأمر بربط جواد الزائر إلى تلك الحجرة وهو بذلك يبين لضيفه ثراءه وعظمته[5].

لقد كان الذهب متوفراً بكثرة، في أسواق سنغاي، على أيام الأسكيين، وكانت مناطق استخراجه عند حافة نهر النيجر العليا، مما حمل عدداً من الرحالة العرب كابن سعيد والعمري وغيرهم على القول : إن نهر النيجر يزرع الذهب على شواطئه، ويذهب الاهالي ليقتطفوه، فينال كل منهم ما قدر له. ذهب السودان الغربي يغطي حاجة سكان البحر المتوسط بما يقدر بالنصف ، ويتخذ كحلي، وزينة لدى الملوك الموسرين[6].

---

(1)- وقد وقفت على مقربة منه عام 1987.

(2) - ابن القاسم التنبكتي، يبعث برسالة تجارية، مخطوط، يتحدث فيها عن معادن السودان، مكتبة الباحث نسخة أصلية، تاريخها 1080هـ ورقة 1، وأحمد الياس حسين «سلع التجارة الصحراوية» الصحراء الكبرى ، طرابلس : مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية 1979، ص204 .

(3) - زرت هذه المدينة عام 1987 وشاهدت عدداً من الأوروبيين والأفارقة يغربلون بغرابيل رقيقة جداً التربة على ضفاف النهر.

(4) - مجهول . تراجم علماء باغرام، مخطوط، ورقة 16 والاستبصار، المصدر السابق، ص221 ومحمد بن فودي، إنفاق الميسور، المصدر السابق، ص45.

(5) مجهول تراجم علماء باغرام، مخطوط، ورقة 17 والاستبصار، المصدر السابق، ص221 .

(6) - محمود كعت، المصدر السابق ص 19-31-87-112 .

كما استخدم الذهب في السودان الغربي في فترة الأسكيين، كعملة، مكتوب على وجه منها عبيد الله، والوجه الثاني توكلنا على الله[1].

لم يحدد صاحب المخطوط في أي فترة من عهد الأسكيين، ولكن أعتقد أنها كانت في فترة السلطان أسكيا الحاج محمد، بعد عودته من رحلة الحج وتلقبه بأمير المؤمنين، فصك عملة تعبر عن عظمته وفترته . وقد أورد صاحب مسالك الأبصار، أن السلطان منسا موسى، عندما سئل عن معدن الذهب، عند زيارته لمصر، أورد أن هذا المعدن يتكون من نوعين، هما:

"نوع في زمن الربيع، عقيب الأمطار، ينبت في الصحراء، وله ورق شبيه بالنخيل، أصوله التبر، والنوع الآخر يوجد في جميع السنة في أماكن معروفة على ضفاف مجاري النيل، فيحفر هناك حفائر فتوجد أصول الذهب كالحجارة والحصي فيؤخذ، وكلاهما هو المسمى بالتبر.

والأول أفحل في العيار، وأفضل في القيمة. قال وحدثني السلطان موسى أن الذهب حمي له بجمع له متحصلة كالقطيعة، إلا مايأخذه أهل تلك البلاد منه على سبيل السرقة.

قلت : والذي قال الدكالي إنه إنما يهادي بشيء منه كالمصانعة، ويكتسب عليهم في المبيعات، لأن بلادهم لاشيء بها، وقول الدكالي أثبتَ"[2].

من خلال ما أورد العمري وأكده القلقشندي نلمس المبالغة، والخيال الجامح في تصوير الذهب، لأنه لم يكن نباتًا، بل هو معدن يستخرج من نهر النيجر، ومن المناجم الموجودة في باطن الأرض فقط. ولكن شهرة منطقة السودان الغربي بهذا المعدن هي التي جعلت عدداً من المؤرخين ينسجون حولها الأساطير، وينسبونها إلى حكام المنطقة. والمستفاد من النص السابق، أن معدن الذهب موجود في المنطقة بكميات كبيرة، وأنه يمثل جانباً مهماً في حياة السكان، حيث يتم استخراجه وبيعه، أو مقايضته بالسلع الأخرى .

(1) محمد محمد المفتي (مرحبا)، التاريخ الخاص بالتواتر، مخطوط، ورقة 96.

(2) العمري، المصدر السابق ص 64، والقلقشندي، المصدر السابق ج 5، ص 290.

وقد أفاد صاحب الاستبصار، أن معدن الذهب ترابه أحمر، ويستخرج كما يستخرج الحديد والرصاص والنحاس والفضة[1].

وأورد أبو الحسن الحكيم طريقة صناعة الذهب، الذي يصفى بإذابته على النار، ولتنقيته من الشوائب، وصبه في قوالب معينة، تسمى «السبائك» ويتولى أصحاب الحرف هذه العملية، ثم تؤخذ هذه السبائك إلى مصانع ضرب العملة في المغرب ومصر[2]. الشيء الذي يدل على مدى ارتباط منطقة السودان الغربي بالشمال الأفريقي، وفي مقدمته المغرب .

ومن المعادن المهمة، والقليلة في السودان الغربي ، معدن النحاس، وقد أورد ابن بطوطة معلومات عن هذا المعدن قائلاً: «ومعدن النحاس بخارج تكدا يحفرون عليه في الأرض ويأتون به الى البلد، فيسكبونه في دورهم، يفعل ذلك عبيدهم وخدمهم، فإذا سكبوه نحاساً أحمر، صنعوا منه قضباناً في طول شبر ونصف، بعضها رقاق وبعضها غلاظ، فتباع الغلاظ منها بحساب أربعمائة قضيب بمثقال ذهب، وتباع الرقاق بحساب ستمائة وسبعمائة بمثقال ذهب، وهي حرفهم يشترون برقاقها اللحم، والحطب ويشترون بغلاظها العبيد، والخدم، والذرة، والسمن، والقمح »[3].

أما القلقشندي. . فقد أورد نقلاً عن عيسى الزواوي قوله : «قال لي السلطان موسى، إن عنده في مدينة اسمها نكوا [ربما يقصدها تكدا] معدن نحاس أحمر، يجلب منه قضبان إلى مدينة (بنبي) قاعدة مالي فبعث منه إلى بلاد السودان

(1) الاستبصار ، المصدر السابق ص221.

(2) أبو الحسن علي يوسف الحكيم ، الدوحة المشتبكة في ضوابط دار السكة، تحقيق حسين مؤنس، مدريد 1960م، ص30 تتربع جمهورية مالي اليوم على مساحة من الذهب، تقدر بخمسمائة كيلو متر مربع تقريباً، ويتركز في الجنوب والجنوب الغربي من الدولة، إلا أن جله مستغل من طرف شركات أجنبية، ولا يستفيد منه الشعب إلا بالنزر القليل.

(3) ابن بطوطة، المصدر السابق ص ص697 ـ 698، ومحمد الغربي، المرجع السابق ص74، والهادي المبروك الدالي ، مملكة مالي الإسلامية وعلاقتها مع المغرب وليبيا، المرجع السابق، ص ص 74-75.

الكفار، فيباع وزن مثقال بثلثي وزنه من الذهب، فيباع كل مائة مثقال من هذا النحاس بستة وستين مثقالاً وثلثي مثقال من الذهب»[1].

والنصان السابقان يوضحان لنا وجود معدن النحاس في تكدا، وطريقة تصنيعه، وأثمانه واستعماله في المبادلات التجارية، ومدى الفائدة التي يجنونها منه .

ويأتي معدن النحاس، السالف الذكر، في الأهمية بعد الذهب والملح، وذلك للحاجة الماسة إليه في الصناعات الحربية والزينة، وصناعة الأواني وغيرها، فقد تصنع منه الأشكال الفنية والمصنوعات البسيطة، وأغمدة السيوف والرماح، كما ترزكش به ألبسة الرؤساء. يستخرج هذا المعدن الذي شكل أهمية في حياة السكان والحكام بمنطقة السودان الغربي من منطقة اكجوجت في الجنوب الغربي من موريتانيا، ومنجم أزوليك ببلاد الآير[2].

ومن المعادن المهمة أيضاً الحديد، وكانت مناجمه منتشرة في عدد من بقاع السودان الغربي، وازدادت أهميته زمن الملك سني علي، وأسكيا الحاج محمد، وذلك نظراً لكثرة فتوحاتهم، فازدادت الحاجة إليه في صناعة الأدوات الحربية، وكثرت دكاكين محترفيها، فصنعوا منه الحراب، والسيوف، والرماح، والدروع، وسيرد ذكرها في الصناعة. وبالإضافة للمعادن السابقة، عرفت المنطقة معادن أخرى كمعدن الرصاص والكحل والقصدير؛ فالرصاص يوجد في بلدتي مرسى ووبروي، والكحل في بلدة كرنوف. وكانت المرأة في السودان الغربي تتزين بوضعه في عينيها[3]، إلا أن هذه المعادن لم تكن واسعة

---

(1) - والقلقشندي المصدر السابق، ج 5، ص291 .

(2) - عبد الله بن الحسن علي، تحفة الأصحاب والرفقة ببيع مسائل بيع الصفقة ، مخطوط، مكتبة الباحث، الأصل تاريخ نسخها 1130هـ 1717م، مخطوط، ورقة 1-3، مجهول رسالة إلى الأسكيا محمد، بخصوص قوافل الملح، مخطوط مكتبة الباحث الأصل، مخطوط، ورقة 10.

(3) - الشيخ عبد الرحمان عبد الله، المرجع السابق، ص74 و MOUNY M OP Cit P 205 .

الانتشار، وسنتطرق لأهم معدن في السودان الغربي، والذي ياتي بعد معدن الذهب في القيمة والأهمية، ألا وهو الملح.

يتركز معدن الملح، في عدة مناطق من السودان الغربي، لكن أشهرها إنتاجاً لهذا المعدن : تغازا، والتي حددها القزويني، بأنها تقع جنوبي المغرب بقرب البحر المحيط[1]، وحددها القشتالي بأنها بلدة تتوسط القفر بين المغرب، وبلاد السودان، كانت في القديم من مملكة سكية[2]، ويطلق عليها عدد من المؤرخين تغزة، إلا أن السائد تغازا[3]، ومعظم سكانها من قبيلة مسوفة إحدى قبائل صنهاجة الصحراوية[4]. أما الذين يقومون باستخراج معدن الملح، فهم من خارج البلدة، حيث يأتون مع القوافل ويبقون كمنجمين. وتغازا مكان مأهول بمناجم الملح، التي تشبه مقاطع الرخام، يحمل منها الملح إلى داخل وخارج السودان الغربي، وهو من أجود أنواع الملح[5]، ومن الملاحات المهمة ملاحة تغاز الغزلان، فبعد أن أحس أسكيا داوود بأن تغازا أصبحت في مرمى السلطان المنصور الذهبي، أمر رجاله بحفر تغاز الغزلان، بديلاً عن السابقة، عام 964هـ / 1556م، ثم استحدث بعد ذلك ملاحة تنورد، بعد أن سيطر السلطان المنصور الذهبي على ملاحة تغاز[6].

ومن ملاحات السودان الغربي ملاحة تودن، وهي مصدر من مصادر ملح السودان، قال عنها عبد الرحمن التواتي: «فقدمنا قرية تودن، وأقمت بها مدة فمرضت بها أياماً . . . لقبح عيشها وملحها »[7].

(1) - موسى بن أحمد السعدي، مخطوط ورقة270 ، وزكرياء بن محمد بن محمد القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد، المصدر السابق ص25.

(2)- القشتالي ، المصدر السابق، ص120.

(3) - مجهول ، خبر السوق، مخطوط، مركز أحمد بابا رقم 1170، ورقة 15, والقزويني، المصدر السابق، ص25 والحسن الوزان، المصدر السابق، ج2، ص108.

(4) - موسى بن أحمد السعدي مخطوط ، ورقة76 .

(5) - الحسن الوزن ، المصدر السابق، ج2، ص108 والقشتالي، المصدر السابق، ص120.

(6) - عبد الرحمان السعدي، المصدر السابق، ص121.

(7) - عبد الرحمان بن عمر التواتي، مخطوط، ورقة 31.

ولقيمة ملاحة تودن وكثرة ملحها، أصدرت فيها فتاوى، فقد قدم القائد أحمد ابن القائد عبد المالك الحيوني، إلى سيدي الوافي بن طالبن، نصاً في حكم معدن تودني ؛ نقتطف فقرات منه «. . . حكم معدن تودني، هل حكمه حكم سائر المعادن، . . . إلا الإمام أم لا، وهل إذا أعطى السلطان حفرة لأحد ومات السلطان. . . إن حكم المعدن المذكور على حكم سائر المعادن التي لاحكم فيها. . . وكتبه المقر بقصور وتقصير سيدي طالبن بن الوافي بن طالبن بن محمد ابن احمد ابن اد. . . »[1].

ومن ملاحات السودان الغربي، ملاحة أوليل، قال عنها الإدريسي: «ولايعلم في بلاد السودان ملاحة غيرها»[2]، ويقصد بذلك في غزارة إنتاجها، ومنها ينقل إلى جميع بلاد السودان وإلى سلي، وتكرور، وبريسي، وغانة، وكافة بلاد ونقارة وغيرها[3].

ومن الملاحات المعروفة في السودان الغربي ملاحة كرنرف، التي تقع جنوب مدينة زندر، وتبعد عنها بحوالي مئتي كيلو متر؛ حيث ينقل ملحها إلى أقدز، وكني وكانوا وغيرها من المناطق [4]. وملاحات السودان الغربي منها ماهي عامة يمتلكها أصحاب المنطقة التي توجد بها، ويأخذ عليه السلطان ، الخراج على الملح بعد بيعه للتجار، ومنها ماهو ملك للسلطان أصلاً، وعادة ما يكون من حق السلطان، ولا يباع ملح أحدٍ إلا بعد بيع السلطان لملحه.

أما الخراج الذي يحصل عليه السلطان من الملح، فيعادل سنوياً الثلث عن كل مقطع، وقد يصل خراج مجموعة من الملاحات أحياناً إلى ثلاثين الفاً[5].

(1) القائد أحمد بن القائد عبد المالك الحيوني، يبعث بسؤال إلى سيدي الوافي ابن طالبن في حكم معدن تودني، مخطوط مركز أبحاث النيجر، رقم 1120، ورقتين.

(2) الإدريسي، المصدر السابق، ج1، ص17.

(3) ابن حوقل، المصدر السابق ص91، والاستبصار، المصدر السابق، ص214، والبكري، المصدر السابق، ج2، ص867 .

(4) مجهول، تراجم علماء باغرام، مخطوط، ورقة ص17.

(5) مجهول ، ملح السلطان، مخطوط، مكتبة الباحث بدون تصنيف، ورقتين.

وتتم طريقة استخراجه بحفر سراديب في الأرض بعمق قامتين أو دونها، ويقطع كما تقطع الحجارة، ويسمى هذا المعدن تاتنتال، وأفاد الحسن الوزان أن له عدة ألوان منها الرمادي والأبيض والأحمر[1][2].

لقد كان معدن الملح يساوي وزنه ذهباً في بلاد السودان، وهو من المعادن التي تهافت التجار عليها؛ لأنهم كانوا يجنون منه أرباحًا طائلة.

الصناعــة :

عرفت الصناعات المحلية ازدهاراً كبيراً في السودان الغربي، فقد كانت صناعة الخشب من الصناعات الواسعة الانتشار في المنطقة؛ فمن خشب أشجار الأبنوس والخيزران صنعوا الأبواب، والنوافذ، والأعمدة، وأدوات الصيد، والحرب، من نشاب، ودبابيس، ورماح ونحوها[3].

ولقد عمل السكان في صناعة الفخار وتشكيله، فصنعوا منه أدوات للطبخ، وحفظ الحليب، عرفت عندهم بالقدح[4]. كما كانت عندهم صناعة القرب، التي تصنع عادة من جلد الماعز، ويفضل ذكورها بأن يخرج الجلد من الرقبة بعد ذبحه. ويحافظون على سلامته من الثقب، ويطمر في الأرض لفترة من الزمن، ثم يخرج ويكون قد زال شعره، ثم يوضع في الدباغ، والمعروف بالجداري، وعيدان شجر التاكوت، الذي يكثر بمدينة غدامس، ويجلب إلى السودان الغربي، وبعد شهر من وضعه في الدباغ يخرج، وقد أصبح ملساً ورطباً وذا رائحة طيبة، ويستخدم بعد ذلك في حفظ الزيت والماء والسمن والدقيق، وكذلك اللحم المجفف.

---

(1) - البكري، المصدر السابق، ج2 ، ص867 والاستبصار، المصدر السابق، ص214، والحسن الوزان المصدر السابق، ج2، ص280.

(2)- لقد شاهدت في مدينة تنبكت صفائح من الملح، طول الواحدة منها مترًا، وعرضها خمسون سنتيمترًا، ولونها أحمر وأبيض، أما الرمادي فلم أره.

(3) - الإدريسي، المصدر السابق، ج 1، ص 20.

(4)- محمود كعت، المصدر السابق، ص 90.

ومن الصناعات المنزلية التي كانت منتشرة، صناعة الدلاء التي تُستخدم لسحب الماء من البئر، وهي من الصناعات، التي برع فيها صناع السودان الغربي، صناعة الزق وهو من الفخار، وعادة مايكون صغير الحجم، يستخدم في شرب الماء والحليب[1].

زيادة على هذا، فقد طور الأهالي بشكل كبير، صناعة النسيج، وخاصة بعد وجود المواد الأولية لهذه الصناعة في البلاد، منها: الصوف والوبر والقطن. وقد أكد الوزان عند زيارته لسنغاي، في عهد الأسكيا الحاج محمد الكبير، في بداية القرن العاشر الهجري السادس عشر الميلادي، على انتشار دكاكين الحياكة في مجال القطن؛ حيث كان بعض الناس يقومون بغزله، والبعض الآخر اختص بنسجه. وكان القطن يستخدم كوسيلة لشراء بضائع الشمال الأفريقي، المجلوبة للسودان الغربي بطريقة المقايضة، والدليل على ذلك ماشاهده الحسن الوزان، أثناء رحلته إلى مدينة جني قائلا: « ويجني سكان البلاد أرباحاً عظيمة من تجارة أقمشة القطن، التي يمارسونها مع التجار العرب المغاربة، ويبتاع منهم هؤلاء بالمقايضة الكثير من الأقمشة الأوروبية»[2].

وأفاد الوزان في موضع آخر، حول هذه الصناعة بأن أهل كوبر متحضرون، وهذه الحضارة تولدت منها مهارتهم في صناعة نسيج القماش، ولاسيما الإسكافيين، الذين يصنعون أحذية تشبه الأحذية الرومانية القديمة[3] وقد ازدهرت صناعة نسيج القطن، والصوف والوبر في مدينة سغ إحدى مقاطعات السودان الغربي[4]. كما برع أهالي قبيلة الزغاويين في صناعة البيوت من وبر الإبل[5]. وبرع أهالي الدمذم في نسج الثياب والأكسية من

(1) ـ محمود كعت ، المصدر السابق، ص 35 - 36 - 67.

(2) ـ الحسن الوزان، المصدر السابق، ج 2 ، ص 537.

(3) ـ نفسه ، ج 1 ، ص 171.

(4)ـ موسى بن أحمد السعدي ، مخطوط، ورقة 49 - 201.

(5)ـ الإدريسي، المصدر السابق، جـ 1 ، ص ص 110 - 111.

خيوط، تخرج من ثمار أشجار، يطلقون عليها (توريري)[1]، ومما يميز نسيجها أنه لايتأثر بالنار.

أما في مدينة ترنكه، فإن البعض من سكانها يحترفون صناعة الأُزر، التي يطلقون عليها الشكيات، وهي ملابس قطنية يصدورنها أحياناً إلى قلنبوا، وأهل ترنكه يحبون شجرة القطن، فلا يوجد بيت إلا وفيه شجرة قطن[2]. يبدو أن هذا راجع إلى التفاؤل بهذه الشجرة، فالجانب الروحي دائمًا يلعب دوره في تصرفات الأفراد، وخاصة في أفريقيا، جنوب الصحراء.

ومن الصناعات المهمة في السودان الغربي، صياغة الذهب والفضة؛ حيث اشتهرت بها مدينة تنبكت وسهل. ولقد كانت هناك عائلات معروفة بهذه الحرفة عن طريق التوارث: من بينها عائلة أولاد أحمد بن عبد الله الأندلسي، في مدينة سهل، الذين ورثوها عن أبيهم مصطفى. وفي مدينة تنبكت، انتشرت صياغة الذهب؛ وخاصة في حي الغدامسية، وحومة السوق، ونحوها لأن عقول سكانها راجحة في ذلك[3].

كما انتشرت عندهم صناعة الحدادة، في كل من تنبكت، وجاو، وبسلنكوب، وبالتحديد في (قرية لفر)[4]، وكان بها ثلاثة حدادين، يصنعون معاول الحرث، وأدوات الحرب كالخناجر، والسيوف، والدروع، والخوذات، والرماح، والفؤوس، وحدائد الخيل، والمطارق والإبر[5].

---

(1)- شجرة توريري لاوجود لها اليوم في منطقة السودان الغربي، لقد سألت عن هذا النوع من الأشجار، خلال رحلاتي المتكررة، ولم أتوصل إلى معلومات عنها، ويبدو أنها انقرضت من المنطقة، أو هي من صنع الخيال.

(2)- الاستبصار، المصدر السابق ، ص 225.

(3)- البكري، المصدر السابق، ج 2 ، ص 869، والاستبصار المصدر السابق، ص 218.
.Delafosse , M : Haute senegal Niger, Paris, 1912. P.11.p.163.

(4) محمد محمد المفتي (مرحبا)، التاريخ الخاص بالتواتر، مخطوط، ورقة 16، وأحمد بابير الأرواني، السعادة الأبدية ، ورقة 36 .

(5)- أحمد بلعراف، أهمية التاريخ، مخطوط، ورقة 13 - 14، وموسى بن أحمد السعدي، مخطوط، ورقة 283، ومحمود كعت، المصدر السابق، ص 30.

ومن الصناعات التي كانت منتشرة في المنطقة، صناعة الزرابي، زمن دولة سنغاي، التي تصنع من أصواف الأغنام، وشعر الماعز ووبر الإبل، والتي اختص النساء دون غيرهم في ذلك. كما عرفت المنطقة صناعة الحصير، التي تنسج من نبات يشبه الديس، إلا أنه أقوى منه وأكثر سمكًا[1]. وصناعة الزرابي التي يبدو أنها انتقلت من الشمال الأفريقي، فهي معروفة في المغرب، وتونس، وليبيا، منذ فترة مبكرة.

وتطورت صناعة دبغ الجلود، وكثر محترفوها، حيث تعددت الصناعات الجلدية، فصنعوا القرب، والملابس، والنعال، والسروج، وأغمدة السهام، والآلات الموسيقية، وخاصة الطبل الذي كان من أهم الآلات الموسيقية، لدى سكان السودان الغربي، وقد جلبوا له مواد الصباغة، من المغرب، ومن مدينة غدامس بليبيا، وقد استخدم الصباغون أوراق النبات، منها التاكوت، والجداري، وغيره من المواد لإخراج الجلد في أحسن حال، وأضافوا لهذه الاصباغ الشب والملح لتثبيت ألوانه[2].

نشطت حرفة الصباغة في العهد المغربي، وحتى أواخر القرن العاشر الهجري، السادس عشر الميلادي؛ حيث كان قسم كبير من سكان سنغاي يلبسون خلال فصل الشتاء الجلود المصبوغة[3].

ومن الصناعات المحدودة في السودان الغربي، صناعة الصابون الذي يستخدمه أهالي المنطقة، في عملية التنظيف، ويرشدنا إلى هذه الصناعة، حادثة العجوز مع السلطان أسكيا داوود، قالت :« ولابد لي من حمل غرامة لك تذكرني بذلك وذلك عشر رؤوس صابون في رأس كل سنة»[4].

(1) ـ محمود كعت، المصدر السابق ، ص 106 - 108، والحسن الوزان، المصدر السابق ج 2، ص 172.

(2)ـ موسى بن أحمد السعدي، مخطوط ورقة 49، ومحمد عبد الفتاح ابراهيم، الثقافات الأفريقية، القاهرة :

(3) Mauny: Op. cit. p. 102 - 131.

(4)ـ محمود كعت ، المصدر السابق، ص 106.

من خلال هذه العبارة، يمكننا أن ندرك عدة جوانب، منها :

1- صناعة الصابون كانت على نطاق ضيق.

2 - التقدم في الصناعة.

3 - وجود زيت الزيتون في المنطقة، وهو وجود صناعة الصابون.

وكذلك من الصناعات الدقيقة، في المنطقة والتي تنم عن إبداع رفيع، واهتمام بالرسائل، التي لابد أن تكون ذات قيمة، صناعة حوافض الورق في سنغاي، حيث كانت تصنع حوافض الرسائل من معدن النحاس[1]. ومن الصناعات الغذائية التي كانت معروفة في المنطقة، صناعة تجفيف السمك الذي يؤكل، ويصدر إلى الخارج، ومايدل على ذلك أن أسكيا محمد كان يفرض ضريبة على قبيلة جندكت، من السمك المجفف، وكان السمك يقاس بالحزمات، والضريبة الواحدة عشر حزمات. وأفاد كعت قائلاً: «... يأخذ غرامتهم كلما غاض البحر، يأخذ ممن استحق عشرحزمات من الحيتان اليابسات»[2].

وهذه الصناعة تدل على تقدم فكري في السودان الغربي.

ومن الصناعات التي مارسها بعض سكان السودان الغربي، مهنة الخياطة، فلقد كانت تنبكت، من بين أهم المدن السودانية، التي كانت تضم أكبر عدد من الخياطين الذين عادة ما يرافقون السلاطين عند خروجهم في الحرب والسلم، بقصد تخييط ملابس الجند، وقد رافق الخياطون بلمع الصادق وجيشه، عند خروجه لأخيه أسكيا محمد بان في كاغ[3].

ومن الصناعات المحدودة، صناعة الأدوات، التي يضع أهالي السودان فيها ملابسهم، فكانوا يصنعون جعباً طويلة من جلد النمور، يطلقون عليه

---

(1)- محمود كعت، المصدر السابق، ص 67.

(2) - محمود كعت، المصدر السابق، ص 57.

(3)- نفسه، ص 131.

شكاير[1]. وقد عرفت المنطقة بصناعة مخازن الحبوب، التي تصنع من الطين المخلوط بالتبن والملح؛ حيث يصل ارتفاع الواحدة منها أربعة أمتار، ولاتزال هذه المخازن تستعمل عند أهل السودان الغربي إلى يومنا هذا[2]. كما صنعوا، كذلك، حوافض للحبوب، من جلود الحيوانات وسموها صينية[3].

ومن الصناعات التي اختصت بها طائفة من العبيد، صناعة بناء أحواض السباحة. وطريقة بنائها تتم بحفر حفرة، طولها نحو ثلاث قامات، ثم تملأ بالرمال والأحجار والبنغات فيوضع فيها الحطب، وتشعل فيها النار، فيذوب البنغات على الأحجار والرمال؛ فتصير ملسة ولاتسمح بتسرب الماء[4].

أما صناعة القوارب، والسفن، فهي الأخرى من الصناعات التي برع فيها سكان السودان الغربي، فقد كانت زمن الملك سني علي من أنشط الصناعات، وقد شجع سني علي صناعة السفن فأبدع الصُّنَّاع فيها، وتنوعت أحجامها، فمنها القوارب الصغيرة والكبيرة، وقد استخدمها في حروبه التوسعية، وخاصة في هجومه على أمير مدينة جني كنبر، كما استخدمها في السلم بنقل البضائع، التي لاتنقل إلا في السفن مثل القارو[5]. وشهدت هذه الصناعة كذلك، نشاطاً في زمن أسكيا الحاج محمد وخلفائه، وازدادت في فترة المغاربة، وخاصة زمن جودر باشا، فعرف ميناء كبره نشاطاً للسفن، التي كانت ترسو على مرفأ. وقد استخدم أسكيا إسحاق القوارب، في فراره من القائد جودر باشا عام 999 هـ/ 1590م[6].

وكانت السفن تصنع من أشجار غليظة وقوية، بأن تُعد الإعداد الجيد،

---

(1)ـ محمود كعت، المصدر السابق، ص 144.

(2)ـ وقفت عليها عام 1995، وأنا في طريقي إلى أقدز .

(3) محمود كعت، المصدر السابق، ص95.

(4) نفسه ، ص 35.

(5) محمود كعت، المصدر السابق، ص 50.

(6)ـ عبد الرحمن السعدي، المصدر السابق، ص 82 - 145 - 162.

وتنظف من بقية الأغصان، ثم تخاط بطريقة انسيابية، فتصنع قوارب صغيرة، وسفن كبيرة، وهناك سفن يتفنن فيها صناع السودان، من حيث الأناقة، وهي التي ينتقل فيها السلطان[1].

الحركة التجارية :

أ - المراكز التجارية على جانبي الصحراء الشمالي والجنوبي :

بدأ قيام المراكز التجارية، على أطراف الصحراء، في أماكن الاستقرار، حول الواحات والوديان ، وتم التبادل التجاري بصورة بسيطة، في أول الأمر بين السكان المستقرين على أطراف الصحراء، والبدو المتجولين لسد متطلباتهم؛ نظرًا للتباين الواضح بين إنتاج المنطقة الصحراوية، والأقاليم المحيطة بها؛ فاتسع نطاق هذا التبادل، عندما تم عبور الصحراء، بصورة منتظمة، منذ العصر الفينيقي[2]، ودخلت سلع منطقتي حوض البحر المتوسط، والسافانا، جنوبي الصحراء في الميدان التجاري، فازدادت الحركة التجارية، في المحطات الواقعة على مرافئ الصحراء الشمالية والجنوبية، وتغيرت طبيعة الحياة فيها.

شجعت هذه المراكز بعض الجماعات من المناطق المجاورة على الاستقرار فيها لتوفر فرص الكسب، وممارسة الحياة الجديدة المتمثلة في الحرف اليدوية البسيطة، التي يتطلبها استقبال القوافل، والعمل على راحة المسافرين. واشتغلت أعداد كبيرة من سكان هذه المراكز، بالتجارة الداخلية والخارجية؛ فكان التجار في الداخل، يقومون بمهمة جمع السلع من مختلف مناطق السودان، في المراكز الجنوبية لحين وصول القوافل، وقد استقر بهذه المراكز، التجار الوافدون من مصر، والمغرب وليبيا، للقيام بمهمة مراقبة الأسواق المحلية، والاتصال بشركائهم أو موكليهم[3].

---

(1)- محمود كعت المصدر السابق، ص50 ـ 95 ـ 158، والقشتالي المصدر السابق ص 147.

(2) -Triningham :op ; cit P13 .

(3) - بوفيل ، المرجع السابق، ص 98.

: S . D GOITEIN : studies In Islami cHISTORY and INSTITUTIONS I . M lemis . Islam In Tropical Africa (- OXford 1966) pp 23 - 25

استوعبت هذه المراكز الأيدي العاملة الوافدة من القبائل المجاورة لها، وازدادت الهجرات إليها بازدياد حركة القوافل، حتى صار السكان خليطاً من مختلف العناصر، فتحولت الحياة البسيطة إلي حياة حضارية، معتمدة أساساً على التجارة واستقبال القوافل، ومساهمة بذلك في نمو بعض المراكز التجارية، وتوسيع حدودها، فكُونت الممالك المستقلة كما حدث في سجلماسة وأودغشت، ولقد تنافست الدول التي قامت على جانبي الصحراء، في السيطرة على هذه المراكز، وإخضاع، أو مصادقة بربر الصحراء الذين يمثلون الدعامة الكبرى، لتحرك القوافل، وحفظ الأمن داخل الصحراء.

كما عرفت المراكز التجارية ارتباطاً وثيقاً بالأمصار الكبرى، شمال الصحراء وجنوبها، واتصلت بطرق التجارة العالمية البرية، والبحرية، فكانت صلات هذه المراكز التجارية، بموانئ سواحل البحر الابيض المتوسط، والبحر الأحمر والمحيط الهندي[1].

وفيما يلي عرض لأهم المراكز، التي قامت على جانبي الصحراء الشمالي والجنوبي:

زويلة :

تشمل منطقة فزان مجموعة من الواحات، ذات الاتصال السهل شمالاً بسواحل البحر المتوسط، وجنوباً بمنطقة بحيرة تشاد، وأشهر المراكز التي ظهرت في المنطقة زويلة، وتقع إلى الجنوب من مدينة سبها .

ظهرت زويلة كمركز تجاري منذ القرن الرابع الهجري العاشر الميلادي، إلا أن جرمة كانت أكثر شهرة منها، حتى دخول الإسلام الى المنطقة، وبدأت زويلة تأخذ الصدارة مع بداية الفتح الإسلامي، فصارت مقر الولاة، قبل تأسيس القيروان، ثم بعد ذلك قاعدة بلاد فزان[2].

---

(1) - GOITEIN . S. op cit : pp .

(2) عماد الدين إسماعيل بن علي بن جمال الدين بن محمد أبو الفداء ، المختصر في تاريخ البشر ، مصر 1325 هـ ، ج1، ص187; وأبو الحسن علي بن موسى، كتاب بسط الأرض في الطول والعرض، تحقيق خوات قرنيط خينيس ، تطوان 1958، ص61 .

لقد مرت زويلة بظروف سياسية صعبة جداً، بدخولها ضمن نطاق الدولة الرستمية، ثم تبعيتها لأسرة بني الخطاب، إلا أن هذه الظروف لم تؤثر بشكل قوي، على مركز زويلة المرموق الذي اكتسبته من موقعها، في بداية طريق كوار الممتدة إلى السودان الأوسط والغربي، وقد ربطها هذا الطريق بمصادر ثروات السودان الغربي، وعلى رأسها الرقيق التي صارت سوقاً لتصديره، وتتجمع التجارة بزويلة من كل جهة، ومنها يفترق قاصدوها الذين تتشعب طرقهم[1]؛ فقد ارتبطت بالمراكز والأمصار مثل أجدابيا والقيروان، وكان أمير أجدابيا يفرض على القوافل الصادرة، والواردة من بلاد السودان ضرائب يقبضها[2]، وأفاد صاحب الاستبصار بارتباطها الوثيق ببلاد السودان، وقال: "وهي من مدن السودان"[3].

غدامس :

تقع مدينة غدامس، إلى الجنوب الغربي من مدينة طرابلس، وتبعد عنها بحوالي ثلاثمائة كيلو متر، وهي من ضمن نطاق ليبيا، عند التقاء حدودها مع تونس والجزائر، ولغدامس تاريخ قديم، يرجع إلى العصر الفينيقي، والروماني، فقد كانت حصنًا تجارياً، وحربياً لروما على طريق جرمة جنوباً، وقد دخلت غدامس ضمن حدود الدولة الإسلامية، في حملات عقبة بن نافع الفهري على المغرب[4].

---

(1)- وأبو الحسن علي بن موسى، كتاب الجغرافيا، تحقيق إسماعيل العربي بيروت 1970 ص127، و أحمد أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح اليعقوبي، كتاب البلدان، ملحق بكتاب ابن رسنة الأعلاق النفيسة، ليدن 1891 ص345، و Martin op. cit p, 18

(2) ابن حوقل، المصدر السابق، ص70 أابو إسحاق الفارسي، الاصطخري، ، مسالك الممالك، ليدن 1906 ص46 .

(3) الاستبصار، المصدر السابق، ص146 .

(4)- مجهول، خبر السوق، مخطوط ورقة 12، و محمد سليمان أيوب، "جرمة في عصر ازدهارها، "بحث مقدم للمؤتمر التاريخي بكلية الآداب، الجامعة الليبية، 1968، ص192.

قال عنها الحسن الوزان إنها منطقة كبيرة مسكونة، بها قصور وقرى مأهولة بالسكان ،أهلها أغنياء، لهم بساتين نخل وأموال كثيرة؛ نظراً لأنهم يتاجرون مع بلاد السودان[1].

وارتبطت غدامس تجارياً، بمدينة تنبكت، وجاو، وجني، وأقدز، وتادمكة، ومع مدن وقرى سودانية أخرى، فصارت محطة مهمة في بداية الطريق، عبر المنطقة الوسطى من الصحراء الكبرى إلى السودان. وكان حي الغدامسية بمدينة تنبكت من أرقى الأحياء. اشتهرت غدامس بصناعة الجلود، وقد قال عنها موسى بن أحمد السعدي في هذا الخصوص: «بأنها بلد بالمغرب، ضاربة في بلاد السودان منها الجلود الغدامسية، وهي مدينة لطيفة أزلية في الصحراء على مسافة سبعة أيام من جبل نفوسه، إليها ينتسب الجلد الغدامسي... ومن غدامس يدخل الى بلاد تادمكة وغيرها من بلاد السودان»[2].

من هنا ندرك قيمة مدينة غدامس، كمركز تجاري، له ارتباطه بمدن ومراكز السودان الغربي .

إضافة إلى هذا فالرسالة التي أرسلها عيسى بن أحمد الغدامسي إلى السيد جعفر بالسودان، سنوردها لتبين مدى ارتباط غدامس بمدن السودان الغربي تجارياً؛ فلقد قال فيها : «الحمد لله وحده والصلاة على رسول الله هذه وصية عيسى بن أحميد الغدامسي لأخيه ومحبه في الله السيد جعفر بيديه على وجه الأمانة، مائة وثلاثة وثلاثين حجرة من الملح منها مائة، وعشرة أحجار له في نفسه، وأربعة عشر لأبنائه، وتسعة للخدام، ويريد من ذلك متاعه، إذا كان سلمه الله [غير واضح] من الريش، ومعظم العاج اشتريه له وإذا [غير واضح] وجدت له أربعة مراجن متا [غير واضح] يهم له يريدهم للطريق، وما بعد ذلك

(1)- الحسن الوزان، المصدر السابق، ج1، ص164.

(2)- موسى بن أحمد السعدي، مخطوط، ورقة 35، وابن سعيد، بسط الارض، المصدر السابق ص 61.

حمله في القوارب، بارك الله فيك يجزيك والسلام حصل له في المكتوب إحدى ومائة والف»[1] 1101 هـ / 1689م»

من خلال هذه الرسالة يتضح الاتي :

1 - الديباجة التي تكتب بها الرسائل التجارية.

2 - العلاقات المتميزة التي تربط تجار غدامس بزملائهم بالسودان الغربي.

3 - السلع وأثمانها في السودان الغربي.

4 - الوسائل التي تنقل فيها، البضائع وهي القوارب.

5 - الفترة التي كتبت فيها وهي فترة التواجد المغربي في السودان الغربي؛ الأمر الذي يوضح النشاط التجاري بين شمال الصحراء وجنوبها.

6 - إن الأمن ليس على ما يرام.

فزان :

يصفها الحسن الوزان على أنها " منطقة كبيرة، تقوم فيها قصور ضخمة وقرى كبيرة، وكلها مأهولة بأناس أغنياء بالمال وبحدائق النخيل، وهم واقعون فعلاً على تخوم آغادس، وصحراء ليبيا التي تتاخم مصر "[2].

وقد أكد الوزان اتصال فزان بالسودان الغربي، فهي مركز تجاري مهم، من مراكز التجارة، الذي تقع عليه طرق القوافل، والتي كانت تذهب للسودان الغربي. فجل منتوجات البحر الابيض المتوسط والشمال الأفريقي من سلع ومواد زراعية، كانت ترسل إلى السودان عبر فزان، وكانت تمر منها أهم السلع،

---

(1)- عيسى بن حميد الغدامسي، يبعث برسالة إلى السيد جعفر في السودان، مخطوط، مكتبة الباحث بدون تصنيف، ورقة واحدة.

(2)- الحسن الوزان ، المصدر السابق، ج 2، ص 146.

وحتى طرق القوافل التجارية بين تنبكت ومصر كانت تمر بفزان عن طريق أوجله وجالو وغات[1].

لقد سهل إقليم فزان على القوافل التجارية عملية الاتصال والتبادل التجاري، وأحكم الصلة بين الرحلات الوافدة من الشمال الى الجنوب، كما قام سكان واحات هذا الإقليم بدور إيجابي، في استقبال القوافل، وإرشادها عند المغادرة، وتوفير احتياجاتها من المياه وغيرها من الخدمات[2].

ورجلان :

تقع ورجلان على خطي عرض 030.50 شمالا 05,17 شرقاً في حدود الجزائر الشرقية، وتعتبر ورجلان البداية الشرقية لواحات الجزائر، وتميزت بوفرة المياه الباطنية، التي توجد في أعماق بعيدة، إلا أنها تتدفق عند حفرها بكميات وفيرة[3]، فقد اكتسبت شهرتها الكبيرة لارتباطاتها التجارية الواسعة، وكونها المركز الأول لتجارة الرستميين. ولأهلها الدور الريادي، في قيادة قوافل التجارة إلى بلاد السودان، منذ زمن إمبراطورية غانة الوثنية[4].

---

(1)- أحمد بلعراف التنبكتى، أهمية التاريخ، مخطوط، ورقة 7، عبد القادر جامي من طرابلس الغرب إلى الصحراء الكبرى، ترجمة محمد مصطفى، طرابلس : المصرات للطباعة والنشر والتوزيع 1960 ص 93. وجمال زكريا قاسم، «كتاب وصف أفريقيا» حوليات كلية الآداب، جامعة عين شمس، مجلد 11 القاهرة، 1968، ص292 .

Michel Abitbol ; Tombouctou et les Arma ; G . P . Maisonneuve et larose; paris 1979; P : 24.

(2)- أبو سالم عبد الله محمد بن أبي بكر التنبكتي، مخطوط، مكتبة الباحث، دون تصنيف، ورقة 20، رحلته إلى الأراضي المقدسة ، مخطوط ورقة 20 إبراهيم فخار، تجارة القوافل في العصر الوسيط، ودور التجار الليبيين في حضارة الصحراء الكبرى ، مجلة البحوث التاريخية طرابلس، مركز جهاد الليبيين، للدراسات التاريخية، 19، ص 57 .

(3)- ابن سعيد، الجغرافيا، المصدر السابق، ص126.

(4)- أبو زكريا يحي« بن أبي بكر الورجلاني، السير وأخبار الأئمة، مخطوط، دار الكتب المصرية، رقم 9020 ج1، ورقة 42-56 ج2، ورقة 79، وسليمان الباروني النفوسي، الأزهار الرياضية في ملوك الأباضية ، المصدرالسابق، ص ص8 -9.

قال عنها الوزان إنها مدينة أزلية بناها النوميديون، سكانها أثرياء، وذلك لاتصالهم بأقدز، وبضائعها تنقل إلى بلاد السودان وونقارة مقابل التبر، الذي تسك منه الدراهم والدنانير[1].

من هنا ندرك مدى الارتباط الوثيق، بين ورجلان ونظيراتها في السودان الغربي .

تيهرت :

تقع ضمن نطاق جمهورية الجزائر حالياً، وقد لعبت دوراً مهماً كمركز تجاري مع مثيلاتها بالسودان الغربي، وتعتبر قاعدة المغرب الأوسط؛ حيث كانت تتبادل البضائع مع بلاد السودان والمغرب الأقصى؛ خاصة مدينة سجلماسة[2].

الزاب :

تقع في نطاق جمهورية الجزائر، كانت مركزاً تجارياًوروحياً، في آن واحد، أهلها أغنياء، وهي على خط التجارة الداخلة والخارجة من بلاد السودان، الشيء الذي ربط تجارها مع تجار السودان برباط وثيق[3].

توات :

تقع توات إلى الجنوب الغربي، من الصحراء الجزائرية، التي هي جزء من الصحراء الكبرى الأفريقية، وتبعد عن عاصمة الجزائر حوالي 1500 كم[4]، وتعتبر توات مركزاً من المراكز التجارية الهامة، فموقعها كواحة وسط الصحراء، جعلها حلقة وصل بين الشمال الأفريقي وبين السودان الغربي؛ حيث عملت على تزويد التجار، بما يلزمهم من غذاء وماء، وغالباً ما يقوم تجار السودان،

---

(1)- الحسن الوزان، المصدر السابق، ج2، ص136.

(2)- سليمان البارون ، المصدر السابق، ص ص8 ـ 9.

(3)- حسن الوزان، المصدر السابق، ص ص134 ـ 135.

(4)- فرج محمد فرج، إقليم توات خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب 1977 ، ص1.

وتجار الشمال الأفريقي، بعرض بضاعتهم بها[1]. وقد أشار ابن خلدون إلى ذلك قائلا : «فمنها على ثلاث مراحل قبلة سجلماسة، وتسمى وطن توات، وفيه قصور متعددة تناهز المئين، أخذه من الغرب إلى الشرق، وآخرها من جانب الشرق يسمى تمنطيت، وهو بلد مستبحر في العمران، وهو ركاب التجار المترددين من المغرب إلى بلد مالي من السودان، لهذا العهد»[2].

وقد كان اليهود المحرك الأساسي لتجارة توات، فتواجد الجالية اليهودية الغنية والكبيرة العدد بها، في الوقت نفسه، درَّ عليها أموالاً وفيرة في تجارتها مع السودان الغربي؛ باعتبارها مركزاً تجارياً، تعبره القوافل الرابطة بين شمال أفريقيا، وبين السودان الغربي[3]. وقد مارس اليهود إلى جانب التجارة، صياغة الحلي وسك النقود، ولعبوا أدواراً مهمة كوسطاء في التجارة، إذ كانوا على اتصال بكبار أرباب التجارة، وأرباب السفن، والشركات الأوروبية، التي كانت تتعامل مع المغرب آنذاك، وخاصة أبناء ملتهم المقيمين بأوروبا[4].

وبهذا أصبحت توات ملتقى طرق مهمًّا لعدد كبير من القوافل التجارية القادمة من الشمال الأفريقي، والمنطقة نحو السودان الغربي.

سجلماسة :

أدى ازدياد الحركة التجارية، في أول القرن الثاني الهجري، الثامن الميلادي، في المنطقة الغربية من الصحراء الكبرى، إلى ظهور محطة جديدة، قدر لها أن تلعب دوراً كبيراً في تاريخ العلاقات التجارية، عبر الصحراء، وهي مدينة سجلماسة[5]، في الحدود الجنوبية الشرقية للمملكة المغربية.

---

(1) نفسه ص 66ـ 67ـ 69ـ70

(2) ابن خلدون، المصدر السابق، ج7، ص117ـ 118 .

(3) عبد القادر زبادية، محمد بن عبد الكريم المغيلي، مجلة الأصالة، السنة 4، ع26، الجزائر، 1975، ص211.

(4) محمد حجي : الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين، الرباط، منشورات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، 1977 ، ص268 .

(5) البكري ، المصدر السابق، ج2، ص837 .

Michel Abitbol ; op ; cit . p 30.

وقد اختلف في تاريخ إنشائها واسم مؤسسها، ولسنا بصدد إيراد هذه الاختلافات[1]، إلا أننا نأتي بما أفاد به البكري، وهو من أقدم المصادر التي تحدثت عنها، أفاد أن أبا القاسم سمجو بن واسول المكناسي، يتردد على هذا المكان بماشيته فاجتمع عليه جماعة من الصفرية، وقدموا عليهم عيسى بن يزيد الأسود، فشرعوا في بناء سجلماسة سنة أربعين ومائة 140هـ/ 857م، تولى بعد عيسى أبو القاسم ابن واسول، الذي حكمت سلالته سجلماسة، وعرفت دولتهم بدولة بني واسول، ــ كما عرفت أيضاً بدولة بني مدرار نسبة إلى مدرار المنتصر بن اليسع[2].

بدأت سجلماسة مرحلة التوسع والازدهار، في عصرأبي المنتصر اليسع 174هـ / 790م؛ حيث ضمت درعة ، وبدأت تقوم بدورها الطليعي في خدمة التجارة، واستقبال القوافل من كل أنحاء المغرب، والمشرق الإسلاميين، وساعد موقع سجلماسة، وخصوبة أرضها، على تحمل الحركة التجارية، وتوفير متطلبات القوافل الداخلة والخارجة من السودان، وجعلت هذه الامتيازات سجلماسة أم البلدان المجاورة لحدود السودان الغربي، وتوثقت علاقاتها بالدول التي جاورتها لتيسير انتقال القوافل، خصوصاً دولة الأباضية في تيهرت[3]، ودولة الأغالبة في تونس؛ فانتظم طريق القوافل من سجلماسة إلى ورجلان، والقيروان[4]، كما

(1) للمزيد في اختلاف تاريخ تاسيس والمؤسس، انظر الناصري، الاستقصاء، المصد رالسابق، ج1 ص124، وابن خلدون، المصدر السابق، ج2، ص13، غيرهم.

(2) البكري المصدر السابق، ص ص 142 ـ 150، ابن عذاري المراكشي ، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق ومراجعة ج س كولان وا. ليفي يروفنسان، ط:3، الدار العربية للكتاب 1983م، ج1، ص ص156 ـ150.

(3)- شمس الدين أبي عبد الله محمد بن عبد الله أحمد بن أبي بكر المقدسى، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ط: 2 ، لندن 1906، ص231 والقزويني ، آثار البلاد ، المصدر السابق ص42، ولسان الدين الخطيب، معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار، نشر وتحقيق أحمد مختار العبادي، جامعة الإسكندرية، 1958، ص114.

(4) أبو زيد بن سهل ، صور الإقليم، مخطوط، مصور على مايكروفلم بمعهد المخطوطات بالقاهرة، غير مفهرس، ورقة 19، والأصطخري، مسالك الممالك، المصدر السابق ص46 .

ارتبطت بعلاقات حميمة مع المراكز التجارية بالسودان الغربي، فكانت القوافل تنقل البضائع المغربية إلى السودان، وتأتي ببضائع السودان بما فيها الذهب، والتوابل وغيرها، وبذلك انعكس كل ذلك على سكان سجلماسة، وازداد ثراؤهم بسبب تجارتهم مع السودان الغربي؛ فكانوا حلقة وصل بين هذه المناطق وغيرها[1] وهذه رسالة تجارية، من تاجر مغربي، يدعى حمدو الشان الفاسي، إلى وكيله بالسودان الغربي، ونصها «الحمد لله وكل وستتاب من يضع اسمه عقب تاريخه أشرف حامد على ماله بذمه اشريف سميه وصيى أحد وعشرون مثقالاً ذهب، وعدد له ملح وأربعة حجر عدد . . . أمانة وعلى غيره اشريف عيسى أحد عشر مثقالاً توكل مفوض اقمه مقام نفسه، وبداء من وعلى الغرار ونكار وعلى القبض وإقرار وإبطال . بتاريخ، أو آخر شهر الله المعظم رمضان عام ستة ومائة والف عبيد ربه حمدو [بياض] حمد الشان الفاسي، كان الله له آمين»[2].

نستخلص من الرسالة عدة جوانب، وهي :

1 - المواد التي كانت تجلب من السودان الغربي إلى المغرب الأقصى، وباقي مناطق الشمال الأفريقي، وفي مقدمتها الذهب الذي يقدر بالمثقال، والملح بالحجر.

2 - عمق الاتصالات التجارية بين المغرب الأقصى، والسودان الغربي؛ خاصة وأن هذه الرسالة، كتبت في فترة التواجد المغربي في السودان الغربي؛ الأمر الذي يؤكد الازدهار التجاري، في هذه الفترة، وأن حكم المغاربة للمنطقة لعب دوراً في ازدهارها، على كافة الأصعدة .

---

(1) الإدريسي، المصدر السابق، ج1 ص105، والحسن الوزان، المصدر السابق، ص ; 127وإبراهيم حركات، المغرب عبر التاريخ ،الدار البيضاء ، دار الرشد الحديثة 1984، ج2، ص181.

(2) حمدوالشان الفاسي، يبعث برسالة تجارية إلى وكيله في السودان الغربي اشريف حامد مخطوط، مركز الشيخ المختار الكنتي، دون تصنيف، ورقة واحدة، تاريخها 1106هـ/

ومن كبار تجار سجلماسة الذين لعبوا دوراً مهماً، في اقتصاد السودان الغربي التاجر حم بن الحاج السجلماسي[1]. ومن أبناء سجلماسة بتنبكت وأروان أولاد عبيد، وهم أكثر الجماعات السجلماسية ارتياداً للسودان، وقد نزل بعضهم بوادي الرتب، بقصبة البلاغمة بأروان. كما اشتغل أولاد عبد الله الكامل بن حسين ابن الحسن السجلماسي بالتجارة، وكانوا سبعة : إدريس وسليمان وإبراهيم وموسى وعيسى ويحيى ومحمد، واستوطن سليمان تلمسان، أما البقية فقد استوطنوا أرض السودان الغربي، وكان ذلك عام 1100 هـ / 1591م[2].

درعة :

تقع درعة شرقي مدينة سجلماسة، بنحو سبع مراحل، ويمتد واديها على مسافة كبيرة، جنوب المغرب الأقصى، تقوم عليه أنواع مختلفة من المزروعات، كما تتوفر بها المعادن. وإلى جانب هذه المواد الطبيعية، كانت درعه مركزاً تجارياً هاماً، ومحطة على أول الصحراء كثيرة في الأسواق والمتاجر[3]، واستقرت بدرعة مجموعات من العرب المغاربة والعرب غير المغاربة، الذين اشتغلوا بالتجارة وخدمة القوافل، وقد كان تواجدهم حاضراً في مراكز التجارة والعلم بالسودان الغربي، فكثيراً ما نجد التاجر الدرعي في المصادر القديمة، بل هناك أسرى، إلى يومنا هذا، موزعون بين تنبكت وجاو وأقدز، ويلقبون بالدرعي[4].

---

(1)- التقيت في العاصمة النيجرية نيامي بالعالم الشريف مولاي زيدان، الذي يرجع نسبه إلى السيد حم بن الحاج السجلماسي، وقد زودني بهذا المخطوط، ، الذي يتحدث في بعض مواضعه عن نسب الحاج مولاي زيدان.

(2) أحمد بن محمد بن أحمد بن عبد العزيز بن الحسن بن يوسف، الأنوار الحسنية في نسب من بسلجماسة من الأشراف المحمدية، مكتبة الباحث، دون تصنيف، 1100 هـ ، ورقة 52 .

(3) البكري ، المصدر السابق ج2 ، ص ص 845 ـ 846 ، وابن سعيد، بسط الأرض، المصدر السابق، ص58، والاستبصار، المصدر السابق، ص207.

(4) ألتقيت بعدد من أفراد هذه الأسر في تنبكت وجاو وأقدز، عام 1985 ـ 1987 ـ 1994 ـ 1995.

تارودانت :

تقع تارودانت جنوب مراكش، بالقرب من ساحل المحيط الأطلسي شرق أغادير الحالية وقد كانت حاضرة سوس لبعض الوقت ، عندما دخل عبد الواحد المراكشي[1] المغرب في القرن السابع الهجري، الثالث عشر الميلادي. أدى موقع تارودانت على طرف الصحراء وقربها من الساحل إلى تنافس الدول، التي قامت في المنطقة، على السيطرة عليها؛ حيث دخلت تحت سيطرة المداريين ثم الأدارسة[2]، وقد ظلت تارودانت مركزاً مرموقاً لتجارة الصحراء، حتى قيام مراكش، فبدأت التجارة تتحول اليها، غير أن تارودانت حافظت على بعض مكاسبها التجارية، فقد استمرت تستقبل قوافل التجار، حتى مستهل القرن العاشر الهجري السادس عشر الميلادي[3].

ولاتـه :

هي إحدى مدن جمهورية موريتانيا الحالية، ولكن لم يرد تاريخ يحدد تأسيسها، إلا أن النحوي يقول : ربما تكون قد تأسست في القرن الهجري الأول، ورد اسمها عند ابن بطوطة ايوالاتن. وذكرها ابن خلدون عرضاً، عندما أشار إلى خروج هدية منسا موسى ملك مالي إلى السلطان أبي الحسن المريني، وجاءت عند السعدي والاتا وابن فودي ولاتن، وقد اعتمدت على رسم ابن بطوطة؛ لأنه دخل المدينة، ومكث بها خمسين يوماً، ولأنه أقدم المصادر التي أشارت إلى هذا المركز[4] .

---

(1) عبد الواحد المراكشي ، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق محمد سعيد العريان ، القاهرة : 1963 م، ص 447، و أبو الفداء، تقويم البلدان، المصدر السابق، ص131.

(2) أبو القاسم عبد الله بن أحمد ابن خرداذبة، المسالك والممالك، ليدن 1967، ص 88، ولسان الدين الخطيب ، أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام، وما يجر ذلك في مجموع الكلام، المصدر السابق، ص142.

(3) الخليل النحوي، بلاد شنقيط المنارة والرباط، تونس 1987م، ص68.

(4) ابن خلدون ، المصدر السابق، ج 7 ، ص644، وعبد الرحمان السعدي، المصدر السابق ص7، وعثمان بن فودي ، إنفاق الميسور، المصدر السابق، ص217.

بدأت ايولاتن تحتل مكانها، كمركز تجاري، على طريق الصحراء الجنوبي، بعد سقوط إمبراطورية غانة، وقيام مملكة مالي، التي ضمتها إلى حدودها. وقد أدت ايولاتن الدور نفسه، الذي كانت تقوم به أودغشت في عهد إمبراطورية غانة، إذ اتجهت إليها القوافل عبر المنطقة الغربية من الصحراء الكبرى، وقد وصفها ابن بطوطة بأنها مدينة كبيرة، تحت إشراف سلطان مالي المباشر؛ إذ يحكمها نائب عنه، وأشار إلى اهتمام أهالي ولاتة بالتجار وخروجهم إليهم بالماء والمؤن[1].

وسكانها خليط من الزنوج والعرب، وقد هاجر إليها عدد من علماء تنبكت، زمن الملك سني علي[2]. وقد ارتبطت بعلاقات تجارية مع تنبكت وباقية المراكز الأخرى[3].

جنـي :

تقع مدينة جني إلى الجنوب الغربي، من مدينة تنبكت، وتبعد عنها بحوالي ستمائة كليومتر تقريباً، وقد ورد اختلاف في تاريخ تأسيسها ؛ إلا أن السعدي يورد أنها تأسست في القرن الثاني الهجري 2/623[4] وسيرد الحديث عنها بالتفصيل في فصل العمران، أما مايهمنا من المدينة مركزها التجاري، وقد حظيت بأهمية اقتصادية كبيرة، نظراً لموقعها المتميز، كملتقى للقوافل التجارية التي تسير بين شمال الصحراء، وجنوبها؛ حيث اشتهرت بتجارة الملح والذهب، وقد وصفها عبد الرحمان السعدي قائلاً :«وهي سوق عظيم من أسواق المسلمين، وفيها يلتقي أرباب الملح من معدن تغازا وأرباب الذهب من معدن بيط»[5].

---

(1) مجهول، تاريخ باغرام، مخطوط ورقة 16, وقفت على هذه المدينة عام 1997.

(2)- الحسن الوزان ، المصدر السابق، ج2، ص162.

(3) نفسه، ج2 ، ص120.

(4) عبد الرحمان السعدي، المصدر السابق، ص12.

Delafosse, M. Op. cit. P : 280.

(5)- نفسه والصفحة .

. De la fosse, M. : Haute sengal Niger Paris 1912 P : 280

ومن خلال النص السابق تتضح قيمتها كمحطة تجارية، ربطت بين زنوج الجنوب، وتجار الشمال بأهم معدنين في المنطقة: الذهب والملح.

وقد زادت ازدهاراً وقيمة تجارية، بعد أن دخلها الملك سني علي؛ حيث عمل على تطويرها، ودعم الأمن بها، بعد أن تزوج أم أميرها[1] .

وفي زمن الأسكيا الحاج محمد الكبير، أصبحت جني أكثر ازدهاراً، وملتقى للتجار داخل السودان الغربي وخارجه ، وقد مكنها موقعها من الاستفادة من النقل النهري، في نقل الملح والذهب، وباقي السلع الأخرى، بالقوارب من تنبكت وجاو وسيقو إلى جني وبالعكس[2]

من هنا ندرك القيمة الاقتصادية التي كان يشغلها هذا المركز في دعم الاقتصاد الوطني.

تنبكت :

تقع مدينة تنبكت على الحافة الجنوبية، للصحراء الكبرى بما يعرف بمنحنى نهر النيجر[3]، وقد مكنها موقعها المتميز، من أن تلعب دوراً مهمًّا في اقتصاد شمال وجنوب الصحراء .

لقد مثلت التجارة المصدر الرئسي في حياة سكانها، وبذلك اهتموا بها اهتماماً كبيراً، وتوافد عليها التجار من داخل السودان الغربي، ومن خارجه؛ وخاصة من الشمال الأفريقي، وفي مقدمتهم المغرب وليبيا. فكان تجار سجلماسة،

---

(1)- موسى بن أحمد السعدي، مخطوط، ورقة، 137.

Barth : H OP, cit, Vol 3 : 532.

(2)- مجهول، نبذة من تاريخ جني، مخطوط، ورقة 4-5.

Zeini Moulaye (Lés Relations du Mali avec les Etats Nord - Africains de 1960 à 1980) these de Doctorat de 3 cycle en science politique uninversite de paris1 . Departement de science politique de la sorbonne1982 (غير منشور)

(3)- أحمد بلعراف التكني، أهمية التاريخ، مخطوط، ورقة 20.

وفاس، والسوس، وغدامس، وفزان، وطرابلس، في حركة دؤوبة معها، يحملون معهم بضائعهم، ويعودون محملين بالذهب، والرقيق، وناب الفيل، وريش النعام، وغيره[1] .

وقد بلغت تنبكت ذورة الازدهار الاقتصادي في القرن العاشر، الهجري السادس عشر الميلادي، الذي عرف بالعصر الذهبي لتلك المدينة، وقد بلغت القوافل القادمة إليها من الشمال الأفريقي، في سنة 751هـ/ 1350م اثني عشر ألف جمل[2] .

وقد أعجب الحسن الوزان بوفرة خيرات تنبكت، وبكثرة الحوانيت التي تبيع المنتوجات القطنية، والأقمشة المجلوبة لها من الشمال الأفريقي وأوروبا[3]. وقد أفاد عبد الرحمان السعدي، بأن تنبكت ملتقى للتجار، أصحاب رؤوس الأموال الضخمة، من كل بلاد[4]. وأورد ابن بطوطة أن بها قبر سراج الدين بن الكويك، أحد كبار التجار من أهل الإسكندرية[5] ؛ الشيء الذي يبرز لنا مدى قيمة هذا المركز اقتصاديًا بربطه بشمال وجنوب الصحراء.

تغاز:

تقع تغاز في جنوب المغرب الأقصى، بقرب البحر المحيط[6] على الطريق

---

(1) نفسه والورقة .

(2) أحمد بابير الأرواني، السعادة الأبدية ، مخطوط، ورقة 13، ونعيم قداح أفريقيا الغربية، المرجع السابق ، ص55 .

(3) الحسن الوزان ، المصدر السابق، ج2، ص ص165 ـ 166 .

Elias N . saad, OP. cit , pp: 6. 11. 13.

(4) موسى بن أحمد السعدي، المصدر السابق، ص!! .

lient prefonton : Historire de Tombucts de sa fondation a l'occupation Francaise, Paris 1942, P .34

(5) ابن بطوطة ، المصدر السابق، ص!! .

(6)- القزويني ، المصدر السابق، ص25 .

الرئيسي، للقوافل بين المغرب وتنبكت، وأغلب سكانها من مسوفة، وتعتبر تغاز المصدر الرئيسي لمعدن الملح، فقد اشتهرت بهذا المعدن، ونسجت حولها الأساطير؛ حتى قيل إن البيت الواحد مبنيٌّ كله بالملح[1]، وهذا يدل على كثرة الملح، الذي كان ينقل بواسطة قوافل تجار الشمال الأفريقي، وخاصة المغرب إلى أصقاع السودان الغربي، وبذلك مثلت تغاز مركزاً تجاريا لأهم معدن[2].

وقد قال : الحسن الوزان «فكان مأهولاً فيه عدد من مناجم الملح، تشبه مقالع الرخام، يستخرج الملح من حفر، تحيط بها أكواخ عديدة، يسكنها المستخدمون لاستخراج هذا الملح، وليسوا من سكان البلدة»[3].

جاو :

تقع مدينة جاو اليوم إلي الشمال الشرقي، من العاصمة باماكو بجمهورية مالي؛ فقد مثلت الدور السياسي، كعاصمة لإمبراطورية سنغاي ، والدور الاقتصادي كمركز من المراكز التجارية للسودان الغربي .

نمت جاو سريعاً لوقوعها على نهاية الطريق الصحراوي، عبر المنطقتين الشرقية والوسطى، من الصحراء الكبرى المتجه نحو حوض نهر النيجر، وقد مكنها موقعها على منحنى نهر النيجر، نحو الجنوب بإشرافها على حركة الملاحة، والتجارة على امتداد نهر النيجر، نحو الجنوب والغرب. وتيسرت اتصالاتها، بهذه المناطق، فتجمعت في المدينة بضائع المنطقة كلها، وارتادتها القوافل التجارية منذ القدم[4].

وقد نتج عن هذا النشاط التجاري ـ عبر طريقي ورجلان وزويلة ـ توسع

(1) ابن بطوطة، المصدر السابق، ص674.

(2) عبد الرحمن السعدي، المصدر السابق، ص11، وعبد العزيز بنعبد الله، المرجع السابق، ملحق 1، ص 26.

(3) الحسن الوزان ، المصدر السابق، ج2، ص ص108 ـ 109.

(4) موسى بن أحمد السعدي، مخطوط ورقة 260، ومحمد علي، دبور تاريخ المغرب الكبير، القاهرة : 1963، ج3، ص346.

جاو، وامتداد حدودها إلى المناطق المجاورة، فأخضعت ثمانية من ملوك السودان، وصارت مدينة جاو، كما يتضح من نصوص الجغرافيين العرب المدينة التجارية الأولى، في وسط نهر النيجر[1].

يبدو أن جاو حافظت على مركزها التجاري، في ظل الأسرة الجديدة، حتى قامت مملكة مالي الإسلامية، فدخلت جاو تحت طاعتها في الفترة الواقعة بين 626 ـ 636 هـ/ 1225-1235م، ثم استقلت جاو عنها فيما بعد. وبدأ عهد التوسع لجاو، حين تولى الملك سني علي السلطة، حيث بدأ في بناء إمبراطوريته التي امتدت حدودها، إلى كل المنطقة الواقعة، بين دولة كانم في الشرق وحتى ساحل المحيط الأطلسي غرباً[2].

تكدا :

تقع تكدا إلى الجنوب الغربي، من مدينة تنبكت، بحوالي أربعمائة وخمسين كيلومترًا، وقد زادت أهميتها بعد اكتشاف النحاس بها، حيث تحولت قوافل التجارة إليها .

وأول من ذكرها، العمري (ت 749 ــ 1348 م)، ونقل عنه القلقشندي في القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي. فذكر أن بها مناجم غنية، تنتج كميات كبيرة من النحاس، وأورد ابن بطوطة الذي دخل تكدا عام 754 هـ / 1253م) وصفاً لهذا المعدن، يحفر عليه في الأرض، ويأتون به إلى البلد فيسبكونه في دورهم، ويوزع بعد ذلك داخل بلاد السودان، وذكر القلقشندي وجود الملح بها كذلك[3].

---

(1) أحمد بن أبي يعقوب اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي، حققه محمد صادق ، بيروت: دار العراق 1955 ، ص194.

(2) أحمد بابير الأرواني، السعادة الأبدية، مخطوط، ورقة،

Fage g .Dip . cit p.57 . 8_7

(3) العمري، مسالك الأبصار، المصدر، السابق ص ص 74 ـ 75 ، والقلقشندي، المصدر السابق، ج5، ص291، وابن بطوطة ، المصدر السابق ص697.

إلى جانب النحاس والملح، فإن تكدا صارت سوقاً تجارياً مهمًّا، ووصل أهلها إلى درجة كبيرة من الثراء، بسبب الاشتغال بالتعدين، أو في الملح أو خدمة القوافل، وكان معدن النحاس، ينتقل إلى المغرب ومصر، عن طريق قوافل التجارة المترددة عليها[1].

أقدز :

تقع أقدز اليوم في الشمال الشرقي، من نيامي عاصمة جمهورية النيجر،وتبعد عنها بألف كيلومتر،[2] والذي يهمنا منها مكانتها التجارية، فقد احتلت موقعاً مهمًّا، وقد كتب عنها الحسن الوزان، وأشار إليها تحت مملكة أغادس، وأفاد أن أغلب سكانها من العرب المغاربة الذين اشتغلوا بالتجارة، ويعتمد دخلها على الضرائب التي تؤخذ من التجار الوافدين عليها، وخاصة من تجار ليبيا. وقد حملت لها البضائع من فزان، وغدامس، وزويلة، ونقلت منها القوافل بضائعها المتمثلة في البخور والذهب[3]، كما كان العلك من بين المواد الغالية الثمن، التي تحملها القوافل التجارية إلى أقدز، وتكشف هذه المراسلة التالية النقاب عن ذلك، وهذه فقرات منها تقول: «الحمد لله وحده ولا يدوم إلا ملكه وصلى الله على من لا نبي بعده. من عند البركة المكرم الأكرم محمد بن عب إلى البركة المكرم الأكرم بكار بن حيد، ألف ألف سلام عليك ورحمة الله وبركاته، ومثل ذلك على من نحب ويحبك، وبعد أن سألت عن أهلك وأبنائك، فهم سالمون والحمد لله، والأهل حكمهم والعلماء والإماء، فهم سالمون والحمد لله كما تحب وترضي. بعد أن سئلت عن خبر الساحل قدم منها الجكاني، وقال: بأن العلك بثلاثين مثقالا ... ومن وقت قدم الجكاني أغلا العلك وروده بعشرة ألف وخمسمائة للحمل وقال: الجكاني بأن أهل أكديز متغادوين بينهم .... وقام سيدي محمد بن بو بكر اني بالحركة وتخابطو في فم أكديز... والموت فيهم

(1) موسى بن أحمد السعدي، زهور البستاتين، مخطوط ورقة 320.

(2) - BARTH OP . CIT 232.

(3) - Hunwick J.D, OP. cit, P : 27.

يسير... وأن سألت عن الخديم العالي إلى مائة مثقال أو أكثر، وتباع الريش بثمانية مثاقيل للرطل، وإن سألت عن خبر الملح في تنبكت بثلاثة مثاقيل ونصف للحمل... وبعد مسلم عليك إبراهيم بن سيدي علي صاحب سيدي محمد بن بوبكر الجكاني... ونزل عنده محمد بن عب بن محمد... ، أهلك الذي في الساحل لابأس... ومسلماً عليك كثير السلام، كاتب الحروف ومسلماً على بكار كثير السلام كذلك محمد الأمين»[1] .

نستخلص من هذه الرسالة الجوانب الآتية:

1- الخط الذى كتبت به مغربى .

2- المرسل والمرسل إليه وهما تاجران من منطقة السودان الغربي.

3- مادة العلك التي كانت من بين السلع المهمة المرتفعة الثمن في السودان الغربي، التي كانوا التجار يتعاملون بها في تلك المناطق، والتي تؤخذ من نوع من الأشجار، فى أفريقيا إلي يومنا هذا.

4- ذكر مدينة أكدز بالتحديد، والتي توجد فيها سلعة العلك، وهي مركز تجاري.

5- ثمن ريش النعام، وأنه يقدر بالرطل.

6- ثمن الملح في تنبكت.

7- جاءت الرسالة بعدد من تجار السودان الغربي.

8- الرجل السوداني له أكثر من زوجة، وهن موزعات في أماكن تواجده.

المسالك التجارية :

مع بداية استقرارأحوال المغرب، بدأ الاتصال الطبيعي المنتظم عبر الصحراء، وكلما زاد الاستقرار في الشمال، تعمقت الصلات، وازدادت حركة القوافل التجارية .

(1) محمد بن عب ، يبعث برسالة إلى بكار بن حيد، بخصوص تجارة بينهم، مخطوط، مكتبة أحمد سالم الشود، دون تصنيف، ورقة واحدة تاريخها، حسب تاريخ محمد عبيد كان على قيد الحياة في بداية انظر الملحق ، ص665.

ويتضح من الإشارات القليلة الواردة في كتب الجغرافيين العرب، أن القوافل عبرت الصحراء، في وقت مبكر في العصر الإسلامي ــ وكانت هذه القوافل، تخرج من المنطقة الواقعة بين وادي درعة، وساحل المحيط الأطلسي بطبيعتها الخصبة، ومياهها المتوفرة العذبة، فصارت مركزاً لتجمع العرب المغاربة الذين فى الصحراء، يلتقون فيها بسكان طرف الصحراء الشمالى. وقد أورد البكري طريقين صحراويين، استخدما في العصر الأموي:

أولهما : يخرج من وادي درعة إلى غانة، مارًا ببئر تزامت من "عمل الأول، وزعم أن بني أمية صنعتها " فإذا كان قد حفر في العصر الأموي، أو قبله فإن هذه الإشارة تدل على انتظام الطريق في عصر بني امية.

والثانية : من تامدلت فبئر الجمالين «من أنباط عبد الرحمن بن حبيب » أثناء ولايته أفريقية 127 ـ 138 هـ (744 ــ 755م)، ثم عبر الطريق على البئرين الآخرين، اللذين أنشأهما عبد الرحمن بن حبيب أيضاً، حتى بئر وانزامين، وينتهي الطريق في أودغشت[1].

ويفهم من حديث موسى بن أحمد السعدي عن بئر وانزامين، وتجمع طرق التجارة عندها، أنه كانت هناك طرق اخرى، ربما استخدمت أو استخدم بعضها في العصر الأموي، ويظهر من الإصلاحات الطرقية، والتي كان الولاة يقومون بها أن الدولة أولت عنايتها بالتجارة وشجعتها .

طريق أوجلة إلى (جاو)

يبدأ هذا الطريق من أوجلة وزلة وودان، إلى بلاد كوار، حتى يصل الى كوكو[2].

---

(1) موسى بن أحمد السعدي ، مخطوط ، ورقة 30، والبكري ، المصدر السابق . . .ص 846، والاستبصار ، المصدر السابق، ص 213 .

(2) الإدريسي ، المصدر السابق، ص 132.

طريق فزان أقدز :

يرجح أن أول طريق سلكه العرب عبر الصحراء، هو طريق فزان أقدز؛ فهو أقصر طريق لعبور الصحراء[1].

ـ طريق غدامس تاد مكة، وطريق تاد مكة القيروان مروراً بورقلة، ومن تاد مكة إلى طرابلس مروراً بغدامس[2] .

ـ طريق ورقلة تادمكة كاغو[3].

ـ طريق ينطلق من جبل نفوسه إلى زويلة، والسودان الغربي وهو قليل المياه[4].

ـ طريق تبدأ من الأراضي التونسية، تسير إلى الجنوب مارة بغدامس وغات وأقدز، ثم تتجه منه إلى الغرب مارة بتكد، إلى جاو على نهر النيجر، وتنتهي في تنبكت[5].

- طريق توات تكد وكوكو وسجلماسة وغدامس[6].

طريق تادمكة أودغست :

أورد البكري وصفاً للطريق بمراحله الخمسين، فالطريق يمر في بدايته على

(1) - H- Murray , Historical - Account of Discoveries and Travel in Africa 2nd ed - Edenburgh 1818 vol - 1 - P37

والجدير بالملاحظة أن التجارة البرية قائمة إلى يومنا هذا بين فزان واغادس فعند زيارتي لأقدز، شاهدت عشرات السيارات المحملة بالبضائع الليبية في أقدز، وتحمل هذه السيارات بلابل من أقدز .

(2) - البكري ص 164 ، وابن بطوطة ، المصدر السابق ص ص 206 - 208 واليعقوبي ، المصدر السابق، ص 109 .

(3) - البكري، ص 164، إبراهيم حركات ، المغرب عبر التاريخ، المرجع السابق، ج2، ص 20.

(4) - نفسه ص 10 - 11.

(5) - محمد عبد الفتاح إبراهيم ، أفريقيا من السنغال إلى نهر جوبا ، مكتبة الأنجلو المصرية، 1961، ص 72 .

(6) - اليعقوبي ، المصدر السابق، ص 109 .

الآبار الثلاثة، التي حفرها عبد الرحمن بن حبيب . وقد شهد هذا الطريق نشاطاً ملحوظاً، منذ عهد الأدارسة، الذين استطاعوا السيطرة على المنطقة، حتى منطقة زاغة على نهر النيجر، والذي أطلق عليها ابن خرداذبه بلاد زاغي بن زاغي[1].

والملاحظ على هذا الطريق كثرة وجود الماء؛ فقد أفاد البكري بأن ثلاثة عشر موضعاً للمياه، كلها عذبة ماعدا القليل، الذي تمنع ملوحته الاستفادة منه، ويلاحظ أيضاً قرب مياه الآبار من السطح، ففي بعض الحالات يوجد الماء على بعد ذارعين[2].

طريق سجلماسة أودغست :

ارتبطت سجلماسة عبر الصحراء جنوباً، بعدة طرق، فالبكري ذكر طريقين أحدهما: يمر على تادمكت، ثم يواصل على طريقها الى أودغست. وقدر ابن حوقل المسافة بين سلجماسة وأودغست بشهرين. وأورد مارمول اسماء بئرين بين سجلماسة وتنبكت، وهي بئر زعوات وبئ[3] عروان. والطريق الآخر يتجه رأساً الى غانة مسيرة شهرين ، ربط الإدريسي[4] سجلماسة بسلي وتكرور وأوليلى، ولم يذكر المحطات التي عبرها، وقدر طوله بأربعين يومًا بسير القوافل[5].

طريق وادي درعة إلى بلاد السودان :

لم يذكر البكري تفاصيل كثيرة عن هذا الطريق، كما فعل بطريق تادمكت فمراحل الطريق غير مذكورة بالتفصيل ، وكذلك أماكن المياه، فهو يقول مثلاً : «ثم تمشي في الصحراء فتجد الماء على اليومين والثلاثة" ، ولكنه ذكر بعض الآبار

(1) - أبو القاسم عبد الله بن أحمد بن خرداذبة، المسالك والممالك، السابق، ص11 وإبراهيم حركات، »دور الصحراء الأفريقية في التبادل والتسويق خلال العصر الوسيط « مجلة البحوث التاريخية ، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية ، س 3 - يناير 1981م، ص 30.

(2) - البكري ، المصدر السابق، ص ص 156 - 157

(3) - مارمول ، المصدر السابق، ج3، ص 179.

(4) - الإدريسي ، المصدر السابق، ص ص 3 - 4.

(5) - البكري ، المصدر السابق، ص ص 149 - 159، وابن حوقل، المصدر السابق، ص 91.

التي توضح أن الطريق لا يعاني من الجفاف الشديد، وأكبر مسافة دون ماء على هذا الطريق، هي المجابة الكبرى حيث لا يوجد ماء بها، لمدة ثمانية أيام، ويمر الطريق بقبائل لمتونة وقاعدتهم أزقى[1].

طريق تغاز السودان :

لم يتعرض البكري[2] لهذا الطريق مباشرة، بل أشار إلى وجود معدن الملح، واتفق وصفه مع ماجاء عند الكتاب من بعده[3] عن تغازة. تبعد تغازة عند البكري عشرين يوماً من سجلماسة، بينما سافر ابن بطوطة من سجلماسة الى تغازة في خمسة وعشرين يوماً، والماء غير متوفر في المنطقة الواقعة جنوب تغازة إلا نادراً، وقد صادفت قافلة ابن بطوطة ماء الغدران، الذي تركته الأمطار بين تغازة وناسر هلا، والصحراء الواقعة جنوب تاسر هلا ذات ريح، شديدة الحرارة تجفف الأسقية، ومن هناك يواصل الطريق إلى ايولاتن. وقد سار ابن بطوطة على الطريق بين سجلماسة ايولاتن شهرين كاملين[4].

ومن المحتمل أن يكون طريق تغاز، قد ازدهر أكثر من الطريق الواقعة إلى الغرب منه؛ لأن ظهور تنبكت في أواخر القرن الخامس الهجري، الحادي عشر الميلادي كمركز تجاري، إلى جانب نمو مركز جني قد ركز حركة القوافل، في الجهة الشرقية من هذه المنطقة، وساعد على ذلك الاضطرابات، التي شهدتها غانة على حدودها الجنوبية، وقد ساعدت هذه العوامل الجزء الشرقي من المنطقة الغربية؛ لاحتلال مكان طلاعيا في تجارة الصحراء، نظراً لتزويدها القوافل بملح تغازة.

---

(1) - البكري، المصدر السابق، ص ص 163 - 164، وابن خرداذبة، المصدر السابق ، ص 10، وابن بطوطة، المصدر السابق، ص 659 .

(2) - البكري، المصدر السابق ص 171.

(3) - القزويني، المصدر السابق، ص ص 25 - 26، وابن سعيد، بسط الأرض ، المصدر السابق، ص 47 ، وابن بطوطة، المصدر السابق، ص 674.

(4) ابن بطوطة، المصدر السابق، ص ص 674 - 676..

طريق فاس تنبكت :

وهي من الطرق التجارية التي يوجد فيها عدد من الآبار، وقد أوضح الوزان شكل الآبار، بأنها مكسوة بجلود الإبل ومبنية بعظامها، وعلى التجار أن يسافروا مع هذه الطريق في فصل الشتاء فقط، نظراً لأن هناك رياح القبلي التى تهب على المنطقة، وتحمل معها الاتربة التي تغطي آبار المياه، وبذلك يموت المسافر في هذه الطريق عطشاً؛ لأنه لايستطيع أن يهتدي إلى مكان البئر[1].

طريق تلمسان أقدز :

يربط هذا الطريق بين مدينة تلمسان ومدينة أكدز، وهو طريق صعب لا يوجد به الماء، ولذلك يضطر المسافر الى حمل الماء معه، طيلة المدة التي يستغرقها في السفر، والتي تتراوح ما بين ستة الى سبعة ايام[2].

إن الطرق السالفة الذكر لم تبق ثابتة عبر الحقب الزمنية، فهناك أمور سياسية وأمنية، عملت على تغيير مسارها من فترة لأخرى، ولكن الاتجاهات عموماً حافظت على ثباتها، ما دامت بعض المراكز التجارية لم تفقد أهميتها، ولاشك أن أهم مؤثرات ضعف الحركة التجارية الصحراوية، أو قوتها ترجع إلى عدة، عوامل أهمها: الجانب الأمني، فإذا ما توافر هذا الجانب نشطت حركة التجارة. وفي منطقة السودان الغربي هذا الجانب متذبذب من فترة لأخرى، حسب قوة الدولة الحاكمة. ونستشف ذلك من غرر المسائل، فقد ورد في ذلك سؤال للقابس « عن رفقة قدمت من غانة إلى سجلماسة فلما كانوا في بعض الطريق، خرج عليهم اللصوص فأكلوا أموالهم»[3].

من خلال النص السابق يتضح، كما أسلفنا، أن الجانب الأمني كثيراً ما يفقد، فيمنع التجار عن ارتياد هذه المناطق.

(1) الحسن الوزان ، المصدر السابق، ج 1، ص ص 75 - 76.

(2) نفسه ص 75 .

(3) مجهول ، غرر المسائل ، أسئلة علماء جازولة ، أخذت عن باب مسائل الجمل والإجازات والأكرية والموزارعة والمقاربة ، مخطوط مكتبة الباحث، دون تصنيف، وهناك نسخة بالخزانة العامة ، الرباط رقم 725.

وكثيراً ما كانت قبائل البرابيش والطوارق والفلان تخرج عن نطاق السلطة الحاكمة، وتجبر التجار على دفع إتاوات عالية؛ لكي تمر قوافلهم ، الشيء الذي دفع بالتجار إلى العزوف عن الذهاب إلى بلاد السودان.

الظروف الطبيعية :

تعتبر الظروف الطبيعية من بين أهم العناصر المؤثرة على التجارة عبر الصحراء، فالطبيعة قوة قاهرة من الصعوبة التغلب عليها[1]. فهناك رياح القبلي، التي تعمل على جفاف الماء من القرب[2]. وقد تعرض ركب أسكيا الحاج محمد، لمثل هذه الرياح في رحلة الحج. كما توجد رياح يطلق اسم عليها الريح الأحمر بما تثيره من غبار أحمر.

السلع المتبادلة ونظم التعامل :

عبرت الصحراء الكبرى أنواع متعددة من السلع، التي انحصرت بصورة رئيسية في المواد التعدينية، والزراعية، في المنطقتين المحيطتين بالصحراء الكبرى، في الشمال والجنوب. كما كانت الصحراء نفسها تنتج بعض هذه السلع التي تبوأت مكاناً بارزاً، في الحركة التجارية، ويمكن تناول هذه السلع تحت مجموعتين: سلع صادرة من السودان، وأخرى واردة إليه .

السلع الصادرة من السودان :

لعبت السلع التي كان يصدرها السودان دوراً رئيسياً، في تجارة الصحراء الكبرى، ويأتي الذهب والرقيق على رأس قائمة هذه السلع.

---

(1) - هبت عليّ في عام 1987، وأنا في طريقي من مدينة جاو إلى تنبكت رياح عاتية ، أوقفت سيارتي يوما كاملاً وليلة إلى أن هدأت تلك الرياح، وكانت محملة بالحصى أثرت في زجاج السيارة بخدشة ،وأربكت الدليل الذي رافقني بأن وصلنا إلى تنبكت بعد ثلاثة أيام ونصف . والمسافة كلها أربعمائة وخمسون كيلو متر أذًا، فما بالك بمن هو على الجمل .

(2) - محمود كعت ، المصدر السابق، ص 187.

الـذهـب :

كان الذهب السلعة الأولى التي جذبت اليها التجار، منذ عهد الفينيقيين، حيث تاجروا في الذهب مع السودان الغربي، ومنذ ذلك التاريخ أصبح الذهب محور تجارة السودان عبر الصحراء مع المغرب[1].

وقد لفتت تجارة الذهب انتباه الجغرافيين، والرحالة العرب، منذ القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي، وجمعوا عنها معلومات كثيرة، والظاهرة البارزة على ما جاء في المصادر العربية، هي حصر مصادر الذهب في منطقة السودان الغربي، والتركيز على روافد نهري السنغال والنيجر[2].

تميزت بعض المناطق في السودان الغربي، بتواجد كميات كبيرة من الذهب، مثل جزيرة ونقارة التي تبعد عن مالي بثمانية أيام[3]، وغايروا، وبلاد الفروبين، وكوغة، إلى الجنوب الغربي من غانة[4]. وكانت كميات الذهب في تلك المناطق كثيرة، حتى أن لملك غانة وحده اثني عشر معدناً يستخرج منها التبر[5].

وقد كتب عدد من الكتاب العرب القدامى، عن هذا الذهب روايات، تصل أحياناً إلى درجة المبالغة في طريقة جمعه. فقد ذكر ابن حوقل، أن الذهب ينبت ببلاد غانة: «في الرمل كما ينبت الجزر، ويقطف حين بزوغ الشمس»[6] كما أورد العمري في رواية عن الملك منسا موسى ملك مالي عند زيارته للقاهرة في رحلة الحج، أن هناك نوعاً من الذهب يجمع «في زمن الربيع، عقيب الأمطار،

---

(1) - محمود الأرواني ، الترجمان ، مخطوط، ورقة 94.

(2) - الإدريسي ، المصدر السابق، ص 8، العمري ، مسالك الأبصار ، المصدر السابق ، ص61، عمر بن مظفر بن عمر، فريدة العجائب وفريدة الغرائب ، لندن 1822، ص 152.

(3) - الإدريسي ، المصدر السابق، ص 8، العمري ، المصدر السابق، ص ص (74-75).

(4) - البكري ، المصدر السابق، ص 176 والاستبصار ، المصدر السابق، ص ص 211- 222.

(5) - أبو العباس أحمد بن سعيد بن عبد الواحد الشماخي ، كتاب السير ، ص407.

(6) - ابن حوقل ، المصدر السابق، ص 87.

ينبت في الصحراء، وله ورق شبيه بالنخيل أصوله التبر»[1].

وهناك نوع آخر من التبر يجمع بعد سقوط الأمطار، وهو ذهب جزيرة ونقارة التي تغمرهما المياه في وقت الفيضان، وعند انحدار الماء يأتي المواطنون للبحث عن الذهب، الذي يكون قد انجرف مع انحدار المياه على التلال التي مر بها، ثم يتسرب على أرض الجزيرة[2].

والذهب الذي يجلب من أرض الفرويين، يستخرج عن طريق صهر المواد التي يوجد فيها[3]. وكانت هنالك مناجم «على ضفاف مجاري النيل [نهرالنيجر]، وتحفر هناك حفائر يوجد فيها الذهب كالحجارة، والحصى»[4] كما يجلب من أسبن في الجنوب[5].

وقد ذكرت المصادر العربية أن الملوك كانوا يحتكرون الذهب، فهو ملك للسلطان، تجمعه الرعية، ولا يسمح لهم بأخذ شيء منه إلا بإشرافه[6].

والملك يختار الندرة من الذهب، وهو ما بين أوقية إلى رطل ، ويمنع خروجها من أرضه لئلا يكثر الذهب بأيدي الناس فتقل قيمته[7] وكان مع الملك منسا موسى، ملك مالي، ثلاثة آلاف شاباً، كل واحد منهم يحمل منقاراً من الذهب في رحلته للحج[1]، وهو الذي أنزل سعر الذهب في القاهرة بما حمله معه من

---

(1) - العمري ، المصدر السابق، ص 68.

(2) - القلقشندي ، المصدر السابق، ج5، ص 290.

(3) - الاستبصار ، المصدر السابق، ص 222.

(4) - القلقشندي ، المصدر السابق، ج 5، ص 298.

(5) - موسى بن أحمد السعدي، مخطوط، ورقة 160 .

Valentin Fernandes, Description de la cote Occidentale d'Afrique Senegal au . cap de Mont , Archipels, Societe industriel de Topographie Lisbone 1951 P :7

(6) - العمري ، المصدر السابق، ص ص 74 - 75 ، والقلقشندي المصدر السابق، ج5، ص 290.

(7) - الاستبصار ، المصدر السابق، ص 221.

ذهب وما أهدى منه[2]. ولذلك كان السلاطين يحاولون التحكم في الكميات، التي ترد إلى الأسواق حتى يحافظوا على السعر.

وقد أدى احتكار الملوك للذهب إلى ظهورهم بمظهر الثراء العريض؛ حيث إن ملك غانا كان يطلق عليه كيمع، ومعناها ملك الذهب[3].

يعد سقوط مملكة مالي الإسلامية، سيطرت سنغاي على مراكز الطرق، وتولت الإشراف على مناطق الذهب الجنوبية، ولكن إشراف سنغاي على تجارة الذهب لم يدم طويلاً، فتولى بعد ذلك المغاربة الإشراف على الذهب وتأمين طرقه، وازدهرت تجارته من جديد، الشيء الذي أكده عدد من مؤرخي السودان الغربي. وقد أورد أحمد بلعراف قائلاً «والرماة من يوم دخولهم هم أهل السيطرة والقوة في هذا البلد الى الآن، وكان الواردون عليها من التجار من كل ينزلون ضيوفاً عندهم ... وكان التجار يجلبون السلع إلى تنبكت من فاس ومراكش وسوس وتفلالت ودرعة واتوات وغدامس وطرابلس وغير ذلك فيبيعونها بالذهب والرقيق ... »[4].

وهنا يورد محمد محمد المفتي (مرحبا) بأن الحركة التجارية في منطقة السودان الغربي سنة 1110هـ / 1689م ، كانت نشطة ومحكمة[5].

هاتان الرسالتان اللتان نوردهما برهانًا على نشاط حركة تجارة الذهب، في عام 1106هـ/ 1694 م/ 1126هـ / 1714م، وهذه فقرات منها، **نص الرسالة الأولى** «استناب من يضع اسمه عقب ... أشريف حامد بذمة أشريف ... وهي إحدى عشر مثقال ذهب وعدله ملح ... وعلى غيره أشريف عين أحد عشر

(1) - الحاج محمد مرحباً ، التاريخ الخاص بالتواتر، مخطوط ورقة 110.

(2) - موسى بن أحمد السعدي ، مخطوط، ورقة 1.360.

(3) - محمود كعت ، المصدر السابق، ص 41 ، ومحمد عبد الفتاح إبراهيم ، المرجع السابق، ص 90.

(4) - أحمد بلعراف ، أهمية التاريخ ، مخطوط، ورقة 19.

(5) - الحاج محمد مرحباً ، التاريخ الخاص بالتواتر ، ورقة 110.

وهي إحدى عشر مثقال ذهب وعدله ملح . . . وعلى غيره أشريف عين أحد عشر مثقالاً توكل مفوض . . . بتاريخ أواخر شهر الله المعظم رمضان عام ستة ومائة وألف عبيد الله حمدو [بياض] حمد الشأن الفاسي كان الله له أمين»[1].

نص الرسالة الثانية :

«. . . هذا امن عند أحمد بن إبراهيم المطاع إلى من أيَّده الله برضاه الرضوان وختم لنا وله بالسعادة والغفران . . . سيدي الوافي عبد الله . . . إذا أتاكم على بن الحاج اقبض لنا مثقلين وسدس يخلصها لك . . . وتسلم عليك فاطمة وامها كثير السلام ونحن على خير وعافية وسلم عليكم كاتبها محمد ابن الحاج محمود العزاوي . . . أوائل شهر الله جماد الآخر يوم الخميس، مضت منه سبعة أيام، عام ستة وعشرين ومائة وألف»[2] 1126 هـ/ 1714م .

من هنا ندرك مدى أهمية التعامل بالذهب في السودان الغربي، والجدير بالملاحظة أن الذهب العين، كان يحمل في أكياس تصنع من رقبة النعامة[3].

بعد هذا العرض نستنتج أن الذهب كان أهم سلعة تجارية، درت على السودان الغربي أموالاً طائلة، وعملت على رفع اقتصاده، وكذلك ربطه مع الشمال الأفريقي برباط اقتصادي متين.

الجلود :

من السلع ذات التاريخ التجاري القديم في السودان الغربي، تجارة الجلود، والتي كانت تستورد من غدامس، وتُصنع منها الأحذية والقرب وأكياس حفظ الحبوب ونحوها[4].

---

(1) - حمد والشان الفاسي يبعث برسالة تجارية إلى وكيله بالسودان الغربي، أشرف، حامد مخطوط، ورقة واحدة .

(2) - أحمد بن إبراهيم المضاع، يبعث برسالة تجارية إلى سيدي الوافي عبد الله ، مركز أحمد بابا التنبكتي رقم 1700 تاريخها 1126/1714، مخطوط، ورقة واحدة .

(3) - موسى بن أحمد السعدي ، مخطوط، ورقة 282.

(4) - أحمد بلعراف، أهمية التاريخ، مخطوط ورقة 24، ومحمد سليمان أيوب «جرحة في عصر ازدهارها»، مقال المرجع السابق ص 198 ،حسن سليم ، مصر القديمة ما قبل الأسرات ، القاهرة، دون تاريخ، ج1، ص 281.

العاج :

لقد دخلت تجارة العاج عبر قوافل السودان الغربي، منذ عصر الجرمانيين والفينيقيين. وكان العاج متوفراً بكميات كبيرة، جعلت المواطنين يصنعون منه أواني الشرب ويزينون به الخيل، وكان من الكماليات المرغوب فيها بالشمال الأفريقي. ويتم تصديرها للمغرب الأقصى، ومنه إلى أوروبا، فهي من البضائع التي يرغب في شرائها، وبذلك يُعتبر أهم صادرات السودان الغربي زمن دولة سنغاي[1].

مواد مختلفة :

السياط من السلع التي يصدرها تجار السودان الغربي، إلى الشمال الأفريقي، وتعرف باسم السربافات. تصنع في بلاد التكرور، من جلد حيوان يصطادونه من النهر يسمى قفو. وقد وجدت هذه السلعة سوقاً رائجاً، إذ يحتاج إليها في ركوب الإبل. كما كان السودان يصدر الأبنوس والعسل والصمغ وحبوب الكولا وريش النعام وبيضه الذي يستخدم في تركيب بعض الأدوية وأدوات الزينة، كما كانت الشب من السلع التي صدرها السودان الغربي، وقد اشتهرت به كوار أكثر من غيرها وحول تلملة[2] وانكلاص «وقصر أم عيسى»[3][4].

السلع المستوردة إلى بلاد السودان الغربي :

جلبت إلى السودان أنواع متعددة من السلع، أتى جزء منها من حوض البحر المتوسط، وأتى جزء آخر من داخل الصحراء، وعلى رأس السلع الصحراوية التي دخلت السودان الملح.

(1) محمود كعت، المصدر السابق ص 149 وعبد القادر زبادية، مملكة سنغاى، المرجع السابق، ص 225 - 226

Law- R.C.C. "The Gamanties and Trous" Saharan Enter Prise In ciasical Times" J.A.H Vol. 8 (No 2: 1967) P: 169.

Humray: Historical Account of disconeries and Travel In Africa vol. P 22.

(2) - تقع إلى الشرق من كوكو بأربعة عشرة مرحلة. الإدريسي ص ص 12 - 19 .

(3) - تقع شمال كوار على رأس الطريق الممتد جنوباً على وادي كوار لمسافة أربعين ميلاً، وهي ليست مدينة كبيرة، إلا أن موقعها أكسبها أهمية تجارية، الإدريسي ، المصدر السابق، ص 79.

(4) - محمود بن عب يبعث برسالة إلى بكار بن ضيل بخصوص تجارة بينهم، مخطوط مكتبة الباحث، دون تصنيف، ورقة واحدة .

الملـح :

كان الملح يمثل سلعة مهمة في تجارة الصحراء منذ فترة طويلة، قبل الفتح الإسلامي لشمال أفريقيا[1]؛ وذلك لعدم توفره بكميات كبيرة تكفى لسد متطلبات السكان داخل أرض السودان. ويكاد الملح ينعدم جنوب الصحراء، إلا في بعض مناطق شرق النيجر، حول حوض البنوي؛ حيث يستخرجه أهالي البلد من المستنقعات في فترة الجفاف، وترافق عملية استخراجه بعض الطقوس الدينية إشارة لأهميته البالغة[2].

وكانت جزيرة أوليل على المحيط الأطلسى، المصدر المهم لتزويد السودان الغربي بالملح، وبسبب وقوعها في آخر غرب السودان، فقد كان من الصعوبة بمكان وصول ملحها إلى أطراف السودان النائية جنوباً وشرقاً، لعدم توفر المواصلات التي تسير ذلك؛ وكان التكرور يتاجرون في ملح أوليل على نهر السنغال[3].

كما كان للتجار الليبيين دور كبير في تجارة الملح مع مناطق السودان الغربي، فهذه الرسالة تبرز ذلك الدور، حيث جاء فيها مانصه :«الحمد لله وحده وصلى الله على محمد وسلم زمام ماعلمنا في غارب عزم... ماذكره الحاج محمد ابن أحمد ومحمد مغوراً الغدامسيان أربعمائة حجرة مائتان حجرة من الحاج محمد ابن با أحمد، ثم مائتا حجرة من محمد مغوراً متاعك... عشرين حجرة... معه ليشترى أحدهما بالملاحف الحرير، والأخرى بما ينفعنى»[4].

---

(1) - كان الملح من بين المواد التي تاجر فيها الرومانيون مع أهالي السودان الغربي، وحصلوا على أرباح هائلة، للمزيد، انظر محمد سليمان ايوب ، المرجع السابق ص 189.

(2) - مجهول، تاريخ باغرام ، مخطوط، ورقة 26.

(3) – موسى بن أحمد السعدي ، مخطوط، ورقة 50 ، محمود بن عب يبعث برسالة إلى بكار ابن ضيل بخصوص تجارة بينهم ، مخطوط، ورقة واحدة .

(4) - مجهول، رسالة تجارية لأحد تجار تنبكت يبعث بها إلى الحاج محمد بن أحمد ومحمد مغورًا الغدامسيان، مكتبة الباحث دون تصنيف، ورقة واحدة.

نستخلص من هذه الرسالة عدة نقاط، منها :

1 - دور التجار الليبيين ومساهمتهم في حركة الاقتصاد بالسودان الغربي.

2 - ازدهار حركة تجارة الملح بين شمال الصحراء وجنوبها.

ولذلك.. فإن ندرة معدن الملح، وصعوبة وصول الموجود منه، إلى الداخل جعل منه سلعة مهمة، يحرص عليها التجار لضمان أكبر قدر من الذهب.

ولأهميته كان له نظام معين في التعامل به، وهذه الرسالة التي نوردها الآن، على الرغم من أنها مبتورة في بدايتها، إلا إنها تميط اللثام عن جوانب مهمة، وهذه فقرات منها تقول : "وكان سيرة ملوك سنغى أن يجعلوا عليه أميناً، أي أمين يتحرونه فيخلوا بينه وبين الناس، ونفقة أعوانه ثابتة من [البحر][1] يحملها إليه من لايحمل الملح، ويأخذ الثلث من كل ماقطع من الملح، ثم لايباع شيء من الملح، حتى يباع ملح السلطان، فيأخذ السلطان خراجه ثلاثون ألفا، ومابقى يتولاه أمينه يعطى منه قيم الزرع المحمولة إليه، وكراء الدواب الحاملة، ثم شأنه بما بقي يفعل فيه كيف يشاء، إلا أن [الثلث][2] ألفاً لاينقص منها شيء غير أن الملح حينئذ غال لعمارة التكرور، وكثرت أهله وكمال عدله وأمن سبله وكثرة الغنا في أهله، فلما ذهبت دولة السودان انعكس الأمر، وتسلطت الاعراب وكثر الخراب، وكسد الملح، وبذهاب دولة الرمات، قلت فائدته، وأما سيرت فأنت أعلم بها فإن أردت أن تعمرها بعد الدثور، فابعث لها أمياً فإن الأمانة تصلح الديانة وتبسط الرزق، قال الرسول صلى الله عليه وسلم إذا أراد الله بقوم [عا][3] فتح عليهم باب أمانة، وإذا أراد بقوم اقتطافاً فتح عليهم باب خيانة، ومن ائتمن خائناً فقد ظلمه، قال الشاعر :

لقد ظلموك حين سموك سيداً كما ظلم الناس الغراب

---

(1) - يقصد به نهر النيجر .

(2) - خير .

(3) - ثلاثين .

. . . واعلم أيها الأمير أن الملح لايحل تحجيره عن أحد لقوله صلى الله عليه وسلم ثلاثة الناس فيهم سواء الماء والملح والنار، فمن منعهم منعه الله فضله يوم لافضل إلا فضله"، ولكنه من المنافع العامة، التي ينبغي أن يكون لبيوت المال فيها حظ وافر لقيامها بمنافع عامة الأمة، قال عمر بن الخطاب. . . يا أمير سوسبي اقسموها بينكم تجدوني دانيا ولابخيلاً ولاخائناً ولاكذوبا، وأعيذك بالله أن تحمل كتابي هذا على غير ماهو عليه، وذلك محبتك في الله وفي رسوله وأهل بيته، وطلب النصح الواجب على الله ولرسوله ولائحة المسلمين، وأنت واحد منهم، وأن أخذ العهد على العلماء، بالبيان كما أخذه على الرسل بالتبليغ وعدم الكتمان. . . ولاتكتمونه والسلام على حضرتكم المحفوفة بالبركات، المنوطة بالتحف والخيرات، مادام السكون والحركات، ومن نور الله بصيرته فالإشارة تكفيه، والسلام صلى الله على سيدنا محمد وآله"[1].

نستخلص من النص السابق عدة أمور، وهي :

1 - أن الباعث من كبار تجار السودان الغربي.

2 - أن المرسل إليه أمير مغربي سوسي.

3 - أن الملح يمثل عند جُلِّ حكام السودان الغربي قيمة، وأن جزءاً منه يتحكم فيه الحكام بل يملكونه.

4 - اهتمام تاجر المغرب باقتصاد السودان الغربي.

5 - قيمة الخراج التي يحصل عليها سلاطين سنغاي من الملح، وكيف تقسم الأموال بين السلطان وأصحاب القوافل الحاملة له.

6 - ذكر الدول التي قامت وانتهت بالسودان الغربي في عرض مقتضب، بين فيه أن تسلط الأعراب على المنطقة عمل على اختلال الامن؛ الأمر الذي

(1) - مجهول يبعث برسالة (ويبدو أنه تاجر من السودان الغربي) إلى أمير سوسي (من بلاد السوسي بالمغرب) حول بعض المسائل التجارية مخطوط، مكتبة عادل محمود الأرواني بتنبكت، دون تصنيف .

ترتب عليه كساد تجارة الملح في المنطقة.

7 - طلب صاحب الرسالة من صاحبه أمير سوسي - الذي يبدو من خلال الرسالة أنه على علاقة وطيدة به - أنه إذا أراد استئناف تجارته لمعدن الملح، فعليه أن يجعل عليه أميناً.

8 - لجأ صاحب الرسالة في حواره مع صديقه إلى التأسي بأحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم حيناً، وإلى الأسلوب الأدبي حيناً آخر، وكأنه يحفزُه على مواصلة التجارة مع السودان من جديد.

9 - طلب صاحب الرسالة من صاحبه ألا يفسرُ رسالته تفسيراً آخر، وذكَّره في نهاية الرسالة بأنه أمير المسلمين.

10 - ختم رسالتـه بوصف صاحبه بأنه فطن بعبارته، تكفيه الإشارة ثم دعاء له.

لقد كانت الصحراء المصدر الرئيسي للملح، وأشهر المناطق التي ساهمت في إنتاجه: ملاحات تغازه التي وصفها البكرى[1] في القرن الخامس الهجري الحادى عشر الميلادي، ولكنه لم يشر إلى اسمها. وربما دل عدم إشارة البكرى لاسمها، إلى أنها كانت في تلك الفترة حديثة عهد باستخراج هذا المعدن، لأن قيمة الملح كسلعة تجارية، لابد أن تعطيـها شـهرة تجعلها على ألسنة التجار، وبذلك تتوفر عنها المعلومات.

وقد عرفت تغازه عند كتاب القرن السابع الهجري، الثالث عشر الميلادي، فذكر ابن سعيد استخراج الملح منها والذهاب به إلى السودان[2]. كما أفاد القزويني عن قيمة الملح في أرض السودان، حينما قال : "والملح بأرض السودان عزيز جداً، والتجار يجلبونه من تغازه إلى سائر بلادهم"[3].

---

(1) - مجهول ، خبر السوق، مخطوط، ورقة 10 - 11 ، البكري ، المصدر السابق ، ص171.
AHMED BOUCHARB, OP. Cit P : 8

(2) - ابن سعيد ، بسط الأرض ، المصدر السابق ، ص47 .

(3) - القزويني ، المصدر السابق ، 26 .

وقد اشار ابن بطوطه إلى منطقة تغازه، وكيف أن قبيلة مسوفه الصنهاجية تسيطر عليه، ويتم التنقيب عنه بواسطة عبيدها[1].

وإلى جانب تغازه، وجد الملح في بعض الأماكن في الصحراء الكبرى، لم تصل إلى شهرة تغازه مثل منجم تاودني[2].

لقد كانت قيمة الملح الشرائية مرتفعة جدًا، ولاتخلو من بعض المبالغات، إذ أوردت بعض المصادر أنه يباع بـوزنه ذهبًـا، وربما باعـوه بوزنين أو أكـثر حسب كثرة التجار وقلتهم[3].

وكانت مدينة جاو عاصمة مملكة سنغاي، من أهم المراكز للإتجـار بالملـح، ومـع أن هذه المدينة، كانت محطة لأهم أنواع السلع التي تنقل إليهـا مـن الشـمال الإفريقي والبحر المتوسط، إلا أن أغلى أنواع السلع فيها هو الملح[4]. وكانت قوافل غدامس من آهم القوافل بالشمال الأفريقي، التي لعبت دورًا في ازدهار تجارة الملح؛ فهذه الرسالة تكشف النقاب عن ذلك، نورد فقرات منها "الحمد لله وحده وصلى الله على من لانبي بعده بهذا باع البركة الرشيد بركة غلام الحاج يحي... الأول يحي بعث مع الحاج صالح الغدامسي أيضا سبعة جمال ملح... وأيضا جملين قل رأس ملح مع بيد سيد الوافي..."[5].

لقد حافظ الملح على قيمته الشرائية، فقد كان حمل الملح في القرن الثالث

---

(1) - ابن بطوطه ، المصدر السابق ، ص674 .

(2) - أحمد بلغراف ، مخطوط، ورقة 23 .

(3) – موسى بن احمد السعدي ، مخطوط، ورقة 220.

Danidson Basilm Africa in History, Mac Millan publishing New York 1974 p:75.

(4) - حسن الوزان ، المصدر السابق ، ص544 .

(5) – مجهول ، صالح الغدامسي والمختار بن حمد ، يبعث برسالة تجارية إلى سيد الوافي، مخطوط، مكتبة الباحث، دون تصنيف، ورقة واحدة .

الهجرى، التاسع الميلادي، يباع داخل السودان مابين مائة إلى ثلاث مائة دينار[1] وفي القرن السابع الهجرى، الثالث عشر الميلادي، يساوي مائة دينار[2] وفي عهد ابن بطوطة، كان حمل الملح يباع في ابولاتن من ثمانية إلى عشرة مثاقيل، وربما انتهى إلى أربعين مثقالا[3].

أما في القرن الحادى عشر الهجرى السابع عشر الميلادي.. فكان ثمن الملح في تنبكت يساوى ثلاثة مثاقيل، وهذا ما أورده محمد بن عب في رسالة بعث بها إلى بكـار بن حيد بخصوص تجـارة بينهـم، قال: "... من عند البركة المكرم الأكرم محمد بن عب إلى البركة المكرم الاكرام بكار بن حيد ألف الآف، سلام عليه ورحمة الله تعالى وبركاته، ومثل ذلك على من تحب ويحبك وبعد...

إن سئلت عن خبر الساحل قدم منها جكاني، وقال: بأن العلل بثلاثين مثقالاً... وإن سئلت عن خبر الملح في تنبكت بثلاثة مثاقيل ونصف... وصلحا على بكار كثير السلام كذلك محمد الأمين"[4].

وأورد محمود كعت أن أسعار الملح انخفضت في تنبكت، بعد سقوط سنغاي فبيعت الكمية بخمس مثاقيل وثلاثين[5].

وما أورده كعت لايدل على كساد التجار بقدر مايدل على ازدهار التجارة في عهد الحكم المغربي في السودان الغربي، فكثرة القوافل المغربية الحاملة للملح قللت من سعره.

الكـتب :

مثلث الكتب نوعاً من أنواع التجارة، وكانت مناطق تصديرها الأساسية المغرب، ومصر، والحجاز؛ حيث كانت أثمانها مرتفعة، وخاصة في عهد دولة

(1) - ابن حوقل ، المصدر السابق ، ص101 .

(2) - القزويني ، المصدر السابق ، ص26 .

(3) - ابن بطوطه ، المصدر السابق ، ص674 ، وموسى بن أحمد السعدي ، مخطوط ، ورقة 112 .

(4) - محمد عب يبعث برسالة إلى بكار بن حميد ، بخصوص تجارة بينهم ،،، مخطوط ورقة.

(5) - محمود كعت ، المصدر السابق ، ص181 .

سنغاي. وكانت مدينة تنبكت سوقاً رائجاً لها، فقد طلب الفع كعت من السلطان أسكيا داوود، أن يشترى له نسخة القاموس بثمانين مثقالاً. وكانت تجارة المخطوطات أيضاً من السلع المهمة؛ الشيء الذي يدل على قيمة الكتب والرفعة العلمية، التي كان عليها حكام وعلماء السودان الغربي.

لقد عرفت سنغاي في فترة الأسكيا الحاج محمد الكبير حرفة الوراقين، وتأليف الكتب، وذلك على نمط ماكان في مصر، والمغرب الأقصى. ونتيجة لإقبال حكام وعلماء السودان الغربي على اقتناء الكتب، تمكن التجار من الحصول على أموال ضخمة في بيع هذه السلعة، التي كان لها رواج ملحوظ في المنطقة؛ نظراً لانتشار العلم والعلماء، ووجود منارات للعلم[1] وقد عثرت على فتوى لمحمود بغيغ موجهة إليه من أحد أبناء السودان، يقول لصاحبها : "من مات وخلف كُتباً هل يجبر ورثته على بيعها إن يكن فيهم من يصلح لطلب العلم أم لا"؟.

الجواب "لايجبرون على ذلك"[2].

وهذا يدل على أن الكتب من بين السلع المهم، التي كان لها رواج في السودان الغربي.

الأحجار الكريمة وأدوات الزينة

عرفت منطقة فزان، منذ أقدم العصور كمصدر من مصادر الأحجار الكريمة، فقد تاجر فيها الجرمانيون مع الفينيقيين والرومان[3]، وقد كانت الصحراء

(1) - أحمد بلعراف ، أهمية التاريخ، مخطوط ، ورقة 13 - 14 ، وحسن أحمد محمود «دور العرب في نشر الحضارة في غرب أفريقيا»، مجلة كلية الآداب، القاهرة : 1959 ع 15 ، ص89.

(2) - مجهول فتوي ، حول بيع الكتب ، مخطوط ، مكتبة الباحث بدون تصنيف، ضمن مجموعة فتاوي .

(3) - عرفت هذه الأحجار منذ فترة الفراعنة، وكانت تسمى حجر التمحو، والتمحو هم أجداد قبائل التبو، وقد كانت قيمة هذه الأحجار تعادل قيمة الماس اليوم، وقد وصل هذا الحجر إلى الفينيقيين عن طريق الجرمانتيين، واشتهر في أوروبا باسم الحجر القرطاجني، وعرف في العالم الروماني باسم الكاربونكل، للمزيد انظر محمد سليمان أيوب، المرجع السابق ص188.

الفاصلة، بين غدامس وتادمكة مصدر الأحجار الملونة، المختلفة الأحجام والألوان، وكانت تباع في السودان الغربي، منذ زمن إمبراطورية غانه بأغلى الأثمان[1]، فالطبقات الثرية في المنطقة هي التي تقتني هذه الأحجار، كما كانت تجلب إلى منطقة السودان الغربي الأطداف والخرز، والأسورة، تصنع من النحاس، والفضة المذهبة، أو من الذهب الخالص، وتزين هذه الحلى بالخرز الملون، وتعمل على شكل: قلائد، وأقراط، وعقود وغيرها[2].

أما الروائح والعطور.. فكان قسم منها يجلب إلى المغرب من أوربا، وتحمل إلى سنغاي، وقد جنى التجار من وراء هذه التجارة الأموال الطائلة، نظراً لما وجدوه من إقبال كبير عليها[3].

والجدير بالملاحظة أن التجار المغاربة، كانوا هم الوسطاء الرئيسين لهذه التجارة.

التمر :

من السلع التي كانت ترد على السودان الغربي، وخاصة مدينة جني من الشمال الأفريقي، فقد كانت تصدر من ورجلان، وسجلماسة وغدامس، وايولاتن[4].

المصنوعات الحديدية والجلدية :

كانت القوافل تنقل بعض الأدوات الحديدية، والجلدية من مراكز الصحراء جنوب المغرب، وأهم هذه الأدوات الدروق التي تنسب إلى لمطه، وتصنع في بلدة نول، وكانت هذه الدروق على درجة كبيرة من حيث الجودة، والخفة،

(1) - البكري ، المصدر السابق ص182 ، الاستبصار ، المصدر السابق، ص ص224 - 225 .

(2) - عبدالقادر زباديه ، مملكة سنغاي ، المرجع السابق ، ص ص220 - 224 .

(3) - نفسه والصفحة .

(4) - محمود الأرواني، الترجمان في تاريخ الصحراء والسودان، مخطوط ورقة 94، ابن سعيد، بسط الأرض، المصدر السابق ص60، والإدريسي، المصدر السابق، ص4، وحسن الوزان، المصدر السابق، ج2، ص163

وطريقة صناعتها، فهي من جلد حيوان يسمى اللمط، وقد أفاد القزويني أن جلد هذا الحيوان بعد دباغته إذا أصابه خدش أو بلل بالماء، إذا مسح يزول عنه[1].

أما الأدوات الحديدية، فتتمثل في السيوف، والمناجل، وحلق الأبواب، وكانت هذه المصنوعات، تجلب عن طريق التجار المغاربة[2].

النحاس :

تعرض عدد من الجغرافيين العرب[3]، حتى القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، لتصدير النحاس إلى السودان، فكانت قوافل التجارة تنقله إلى غانه، والتكرور، وأودغست من المغرب الأقصى - ولم يرد له ذكر بعد القرن السادس الهجرى، كسلعة تنقلها القوافل التجارية عبر الصحراء. بل تمت الإشارة إلى تصدير تكدا للنحاس إلى مناطق السودان الغربي[4]؛ مما يساند احتمال اكتشاف معدنه، في تكدا بعد القرن السادس الهجري، الثاني عشر الميلادي. ومن بعد.. فقد غطت الكميات المنتجه منه حاجة أهالي السودان الغربي.

واستخدم أهل السودان النحاس كعملة وكأداة للزينة[5].

الـودع :

هو نوع من الصدف كان يجلب إلى سنغاي، من قبل التجار المغاربة، وعندما احتل الأوروبيون سواحل أفريقيا الغربية، جلبوه من الهند؛ مما ترتب عليه منافسة للتجار المغاربة على هذه السلعة.

وقد استخدم في الأسواق كعملة بيع وشراء[6]، وسيرد الحديث عنه.

(1) القزويني، آثار البلاد، المصدر السابق ، ص58 .

(2) محمود الأرواني، الترجمان، مخطوط، ورقة 94، الشيخ الأمين عوض الله، المرجع السابق، ص ص153 - 154، وعبد القادر زباديه، مملكة سنغاي، المرجع السابق، ص219.

(3) - البكري، المصدر السابق، ص159 - 179، والإدريسي، المصدر السابق، ص2.

(4) ابن بطوطه، المصدر السابق، ص689 .

(5) - مجهول، حديقة البستان على تواريخ أهل أروان ، مخطوط، ورقة 24 .

(6) - محمود كعت ، المصدر السابق، ص122، وعبدالرحمن السعدي، المصدر السابق، 312 . والشيخ الامين عوض الله، المرجع السابق، ص149 .

الخيـول :

لاتتوفر في منطقة السودان الغربي الخيول الأصيلة، بل لديهم خيول قصيرة وصغيرة، يستخدمها أفراد حاشية الملك في تجولهم بالمدينة، والتجار في أسفارهم. أما الجياد الأصيلة فكانت تستورد من الشمال الأفريقي، وخاصة من المغرب الأقصى، ولاتباع تلك الجياد إلا بعد أن تعرض على الملك، فيأخذ منها حاجته، ويدفع لصاحب الخيول قيمتها[1]. وامتلاك الخيل ينم عن مظهر من مظاهر الثراء، فابن بطوطة لم يستطع شراء حصان لترحاله من مالي، إذ عليه أن يسدد مبلغاً قدره مائة مثقال من الذهب ثمناً للحصان، بينما استطاع ان يشتري من تكدا جملين بثلاثة وثلاثين مثقالا[2]. وكانت جاو سوقاً رائجاً لتجارة الخيول الأصيلة مع سروجها[3]، وهي مرتفعة الثمن، والحصان يساوي في مدينة جاو من أربعين إلى خمسين مثقالا[4].

إذًا كان تجار الخيل يحصلون على أرباح وفيرة من جراء هذه التجارة .

المنسوجـات :

كان معظم لباس أهالى السودان الغربي، من المنسوجات القطنية والصوفية والحـريـرية التي كـان يأتي بهـا تجـار المغرب الأقصى، إلى منطقة التكرور عبر أغمات، وكان القميص السوسي الأخضر اللون، يأتي به تجار المغرب من بلاد السوسي، ولايلبسه إلا الملوك؛ نظراً لأنه غالي الثمن .

وهذه المراسلة تكشف النقاب عن دور المغرب الأقصى في تجارة السودان الغربي، وهذا أحمد زرق الفاسي العالم والتاجر يبعث له صديقه الهادي ابن

---

(1) - الحسن الوزان، المصدر السابق، ج2، ص ص166 - 167، ومحمود كعت، المصدر السابق، ص175، وعبد الرحمن السعدي، المصدر السابق، ص97 .

(2) - ابن بطوطه، المصدر السابق، ص ص691 - 699 .

(3) - مارمول، المصدر السابق، ج3، ص ص204 - 205 .

(4) - الحسن الوزان، المصدر السابق، ج2 ، ص170 .

الشيخ بن الإمام إسحاق، بالسودان الغربي رسالة تجارية حول عدد من السلع، من بينها: القماش، نورد فقرات منها تقول: «هذا زمام بعث الهادي بن الشيخ ابن الإمام إسحاق إلى سيدي أحمد زرُّوق، أمانة خادمة وخمسة فردات الزرع والمانغ، قد باع الجميع وأرسلها إليه حيث تبعد باثني عشر ألف في كلفتها، أمره بأن يقضيها له مع مابيده، من أماناته أرسل له عشرة رؤوس وخمس (بيضات)[1] مع عزب زوج أم ولد عبد الرحيم بن الحاج محمد المعلم، وثمانية عشر رأسًا مع معطل على يد علي بن بنغ ميغ، وأرسلت له براءتها وزمام أمانته. . . بتاريخ شهر جمادى الأولى عام 1046هـ»[2] .

وكان ملوك سنغاي، يفضلونه عن غيره من الأقمشة، فلقد كان القميص السوسي دائمًا لباس السلطان أسكيا داوود نظراً للمعانه[3].

أما الأقمشة القطنية فكانت تأتي إليها من أوروبا، عبر قوافل تجار شمال أفريقيا[4]. كما يصدر إلى السودان الغربي الأزر، التي يطلق عليها الشكيات إلى قلنبوا وغيره، وتستورد القطن الذي يصنع منه الأزر[5]، وفي مدينة جاو تواجدت تجارة الأقمشة الحريرية ذات الألوان الزرقاء والحمراء؛ حيث يبلغ ثمن الذراع الواحد منها عشرين مثقالاً، في حين أن غيرها من الثياب لايتجاوز ثمن الذراع الواحد منها ستة مثاقيل[6].

من خلال العرض السابق للسلع المتبادلة، بين السودان الغربي والشمال

---

(1) بيضات يطلق أهل السودان الغربي على نوع من القماش بيضات، وهو نوع من القماش السوسي .

(2) الهادي بن الشيخ الإمام إسحاق يبعث برسالة تجارية إلى سيدي أحمد زروق، مركز أحمد بابا التنبكتي، رقم 7576، ورقة واحد .

(3) محمود كعت ، المصدر السابق، ص ص115 - 130 .

(4) الحسن الوزان ، المصدر السابق، ج2 ، ص163 .

(5) الاستبصار ، المصدر السابق، ص218 .

(6) مارمول ، المصدر السابق، ج3 ، ص ص204 - 205 .

الأفريقي، ندرك أن هناك حركة تجارية جد مهمة في المنطقة، وأن روح التواصل كان قويًا للغاية، بين شمال الصحراء وجنوبها، وأن هذه السلع تترجم الرخاء الاقتصادي الذي شهدته منطقة السودان الغربي، والذي أثر بشكل ملحوظ على الشمال الأفريقي، وأوربا، وجعلها تتسابق لتوصيل بضائعها لمنطقة السودان الغربي.

وسائل نقل البضائع إلى مناطق السوادن الغربي :

كانت التجارة الداخلية في بلاد السودان، تنقل بواسطة القوارب، والسفن منذ زمن إمبراطورية غانه الوثنية، فقد استخدمت الملاحة النهرية عبر نهر النيجر، لنقل البضائع والناس[1]. وكذلك في عهد مملكة مالي الإسلامية، استخدمت القوارب للغرض نفسه، حيث استخدمها الملك منسا موسى، عند عودته من رحلة الحج، فعندما وصل إلى مدينة تنبكت، جمع القوارب وحملها بعياله وأمتعته[2]. وفي عهد دولة سنغاي، استخدمت القوارب في نقل البضائع، والناس؛ على السواء، واستخدمها بعض سلاطين سنغاي في تنقلاتهم، فقد ركب أسكيا إسحاق قاربًا من ميناء كبرى إلى مدينة كاغ[3].

وكانت الملاحة النهرية في الشتاء أسهل من الصيف، وذلك لكثرة مياه نهر النيجر، فتستطيع السفن المحملة بالبضائع السير بهدوء ويسر في النهر، في شهر دجنبر ويعتبر أفضل أشهر السنة للملاحة. وقد أفاد عبد الرحمن السعدي أنه في سنة 1063هـ/ 1652م وصل ماء النهر إلى منطقة معدك[4]، مما يدل على كثرة الأمطار في المنطقة.

وكانت لهذه السفن والقوارب موانئ بحرية، في المدن الكبرى؛ ففي مدينة

---

(1) - الشماخي ، المصدر السابق ، ص457 .

(2) - محمود كعت ، المصدر السابق ، ص37 .

(3) - عبدالرحمن السعدي ، المصدر السابق ، ص97 ، ومحمود كعت ، المصدر السابق ، ص57 - 92 - 95 .

(4) - نفسه، ص315 .

تنبكت، كان هناك ميناء كبر ترسو فيه السفن الداخلة والخارجة. ويشكل الميناء مورداً مهماً، بما يحصل عليه من ضرائب على البضائع والركاب. وكان رئيسه (كبر فرم) يعين من طرف السلطان، لأن الميناء تابع مباشرة للسلطان، ففي عهد السلطان محمد بان كان ميناء كبر تابعًا له.

وللميناء رئيس آخر، وهو الذي يسمح للسفن بمغادرته، ويمتلك الأكياس التي توضع فيها الحبوب. وقد بعث السلطان أسكيا داوود إلى رئيس المرسى كيمكى أن يعطيه عشرة سفن، وألفاً من جلود صنون؛ لكي يرسلها إلى مسن كل الله وكيله؛ ليضع له فيها ماطلب[1]. وقد تعاقب على رئاسة المرسى عدد من المسؤلين، كان من بينهم، منذ الفع ولد زرك ومرسى كرنزمي وغيرهم[2].

أما التجارة الخارجية فكان الجمل رائد النقل فيها، فبدخوله حدثت ثورة في وسائل النقل عبر الصحراء، فلم تعد القفار، والرمال الزاحفة حواجز عائقة، ولقد حطم استخدام الجمل كل الحواجز، وتحولت الصحراء إلى معبر للقوافل، وقامت في مناطق متعددة عدد من المحطات التجارية، ازدهرت عبر العصور، وكانت القوافل تسير في أعداد كبيرة، وكان لها حراس وأدلاء، ومترجم، ووكلاء، ونزل، يأوون فيها بضائعهم وحظائر لجمالهم[3].

الأوزان والمكاييل والمقاييس :

لقد كانت للسودان الغربي مقاييس، ومكاييل، وموازين ثابتة، يتم التبادل والتعامل بها، في جميع أنحاء البلاد وخارجها، ويبدو أنها انتقلت إليهم عن طريق المغرب الأقصى.

---

(1) محمود كعت، المصدر السابق، ص ص96 - 126 .

(2) عبدالرحمن السعدي، المصدر السابق، ص ص157 - 178 .

(3) ابن بطوطه المصدر السابق، ص675، والخليل النحوي، المرجع السابق، ص94 .

وحدة الوزن :

يستخدم المثقال، لوزن المعادن ويساوي وزن اثنتين وسبعين حبة من حبات القمح المتوسطة الحجم، ويقدر وزن المثقال بحوالي أربعة جرامات من الذهب[1]، ويقابل المثقال الذهبي الواحد ثلاثة ألف ودعة[2]. والدرهم عندهم يساوي سبعة أعشار المثقال، أما الدينار فكان يساوي أربعين درهمًا[3]، ويعادل سعر الدينار ستة أوقيات من الذهب[4]، وتزن الأوقية الواحدة حوالي سبعة وعشرين ونصف جرام[5].

وحدة الكيل :

استعملت عدة وحدات لتقييم الحبوب، من بينها :

المد ويساوي أربعة أمداد بجمع اليدين، والصاع يساوي أربعة اضعاف المد؛ أي مايعادل ثلاثة كيلو جرامات. والمرطة وهي تساوي أربع صيعان، أما القنطار فقدر بحوالي بمئة رطل. ومن وحدات تقييم الحبوب الصنية، وكان أسكيا داوود يزن بها الحبوب التي يجنيها[6]، أما المودي فهو مايحمله العبد أو الرجل من حبوب أو نحوه في كيس من الجلد، ويوزن الملح باللمكية والتمر بالحمل، ويقاس وزن الزرع، قبل حصده بالقبضة والفته[7].

---

(1) - موسى بن أحمد السعدي، مخطوط، ورقة 113، ومحمد الغربي، المرجع السابق، ص434.

(2) - محمود كعت ، المصدر السابق ، ص183 .

(3) - زبادية ، مملكة سنغاي ، المرجع السابق ، ص200 .

(4) - موسى بن أحمد السعدي ، مخطوط ورقة 256 .

(5) - موسى بن أحمد السعدي ، مخطوط ورقة 114، وزباديه مملكة سنغاي ، المرجع السابق، ص200 .

(6) - لامن بن أحمد بكدا ، تاريخ أقدز ، مخطوط ورقة 11 ، ومحمود كعت ، المصدر السابق، ص94 .

(7) - موسى بن أحمد السعدي ، مخطوط ورقة 11 ، ومحمود كعت ، المصدر السابق ، ص56 - 68 - 96 - 106 ، وزباديه ، مملكة سنغاي ، المرجع السابق ، ص19 .

معيـار القيـاس :

واستخدم القياس في عدة أغراض : طول الأرض والأقمشة منها الشبر، وهو يساوي الامتداد بين الخنصر والإبهام، وقد قدر بحوالي 21 سم تقريباً، أما الذراع فهو الامتداد، بين عقد المرفق ونهاية الوسطى، ويساوي حوالي 50 سم تقريباً، وكذلك القدم والخطوة والقامة، والحبل هي وحدة قياس المساحة، واستخدم في قياس المسافات الميل، وقدر بحوالي المتر. والفرسخ تُقاس به المسافات الطويلة، ويساوي ثلاثة أميال. واستعمل البريد الذي يعادل سير سرعة الحصان[1]. كما استخدم الرمح لقياس طول ماء النهر[2]، فهذه المعايير نقلت من المغرب، واحتفظت بأسمائها، واستعملت في جميع أنحاء السودان الغربي، بكيفية موحدة.

معيار قياس الأغنام والحيتان :

أما معيار قياس الأغنام فقدر بالدوسة، وفي عهد أسكيا الأمين بن أسكيا داوود في عام المجاعة، كان يذبح للفقراء ثمانية دواس، أربعة في الصباح وأربعة في المساء[3].

وتقدر داوس الواحدة بعشرين رأس من الغنم[4]. أما وحدة قياس وزن السمك المجفف فهي الحزمة[5].

---

(1) - محمود كعت ، المصدر، ص35 - 38 - 56 - 68 ، وعبدالرحمن السعدي ، المصدر السابق، ص129 ، ومحمد الغربي ، المرجع السابق ، ص ص442 - 243 ، وزباديه ، مملكة سنغاي، المرجع السابق ، ص198 .

(2) - موسى بن أحمد السعدي ، مخطوط ورقة 220 .

(3) - عبدالرحمن السعدي ، المصدر السابق ، ص312 .

(4) - إلى يومنا هذا متعارف عليها الدواس بعشرين رأس من الغنم في مناطق مالي والنيجر .

(5) - محمود كعت، المصدر السابق ص 57 .

نظم التعامل التجاري فى السودان الغربي :

المقايضة :

كانت المقايضة إحدى الوسائل، التي تعامل بها تجار السودان الغربي، مع تجار الشمال الأفريقي، منذ أقدم العصور. وهي تعتمد على الاتفاق بين الطرفين، فيما يعرضونه من سلع؛ فالتاجر السوداني يعرض الذهب كسلعة رئيسية، إلى جانب بعض السلع الأخرى، مثل: الريش، والتوابل، ويعرض التاجر الوافد الملح إلى جانب المنسوجات، وكل واحد يضع تجارته، ويختفى عنها إلى أن يتفقوا، ويسمى هذا النوع من التجارة بالتجارة الصامتة[1].

فالمقايضة كانت معروفة، ومتعاملاً بها في كل مراكز السودان التجارية، وهذه الفتوى تؤكد على وجود هذا النوع من التجارة. فقد أفتى الشيخ سيدي المختار ابن أحمد بن أبي بكر في جواز بيع الملح بالطعام. وفيما يلي فقرات منها: " . . . وسيدي شيخنا سيدي المختار بن أحمد بن أبي بكرا . . . أفتى جواز بيع الملح بالطعام إلى أجل وهل القول عام. . . "[2].

لم تقتصر المبادلة على مادة الملح فقط؛ ففي المناطق التي يقل فيها الملح، أو ينعدم، يتم التبادل بالمواد المحلية، فأهل ملي تعاملوا بالذرة والقمح والنحاس[3]. وكان ابن بطوطة أثناء تجواله في السودان، يحمل قطع الملح، وحلي الزجاج، وبعض السلع العطرية ليستبدل بها الدجاج والدقيق[4].

وعندما نشطت حركة التجارة، وتضاعفت أحجامها، لم تعد هذه الطريقة في

---

(1) ابن سعيد ، بسط الأرض ، المصدر السابق ، ص24 ، والبكري ، المصدر السابق، ص172، والاستبصار ، المصدر السابق ، ص217 .

(2) - سيدي المختار بن أحمد بن أبي بكر فتوى ، في جواز بيع الملح بالطعام ، مخطوط مكتبة الباحث بدون تصنيف، ورقتين.

(3) - البكري، المصدر السابق ، ص172 ، والاستبصار ، المصدر السابق ، ص217 .

(4) - ابن بطوطه ، المصدر السابق ، ص ص679 - 694 .

التبادل التجارى تلقى رواجاً، فبدأ ظهور العملات الذهبية، والنحاسية، إلى جانب بعض السلع الأخرى، التي صارت لها قوة النقد.

المنسوجات القطنية :

من السلع التي صارت لها قوة النقد، المنتوجات القطنية، ويطلق عليها أهل التكرور الشكيات، وكانت تدخل في معاملات عديدة في السودان[1].

وهنالك نسيج آخر يتعامل به، في بلاد كانم، يطلق عليه اسم دندي ينسج محلياً، طول كل ثوب عشرة إذرع، يشترون منه ربع ذراع؛ لأن قيمته كانت جد غالية[2].

الـودع :

كان التعامل بالودع كثيراً، في منطقة السودان الغربي، وقد ذكره الجغرافيون والرحالة على أنه من العملات الكثيرة التداول في مراكز السودان الغربي التجارية، مثل غانه، وكوغة، ومالي، وكوكو، وتنبكت، وكان التجار يحضرونه بكميات كبيرة - لقوته الشرائية الجيدة- من الأندلس والمغرب الأقصى[3].

وكان يصل عن طريق التجار العرب من سواحل المحيط الهندي[4].

وكان الودع يستعمل في المبايعات الصغيرة[5].

وقد أفاد سيدي علي بن سيدي علي بن سيدي محمد بن بك في رسالة، بعث بها إلى منيضا بن أحمد الغدامسي في شأن التعامل بالودع، قال :«الحمد

---

(1) - البكري، المصدر السابق، ص172، والاستبصار، المصدر السابق ، ص127 .

(2) العمري، المصدر السابق، ص54، والمقريزي، الخطوط ، المصدر السابق، ج1، ص214.

(3) - البكري، المصدر السابق، ص179، وأبوالفداء، المختصر من أخبار البشر، المصدر السابق، ج1، ص96، والعمري، المصدر السابق، ص54 .

(4) - مجهول، تاريخ مينو ، مخطوط، مكتبة الباحث، دون تصنيف، ورقة 29 .

(5) - المقريزي، الخطط، المصدر السابق، ج1، ص214 .

لله وحده وصلى الله على من لانبي بعده تبليغ السلام الأسنى والتحية الحسنى من سيدي علي بن سيد محمد بن بك إلى من أكرمه الكريم... وأعز الناس الدنيا منيضا بن أحمد الغدامسي موجبه إليك... واشترى لنا ألف ودعة وصرفها...»[1].

وأورد كعت أن أهل سنغاي كانوا يتعاملون بالودع في مبادلاتهم التجارية؛ فقد منح بلمع إلى القراء مائة الف ودعة، عند وفاة أخيه كنفار صالح[2] واستمر التعامل بالودع حتى فترة حكم المغاربة للمنطقة؛ فقد أخذ القائد مامي من أهل الزغرانيين، من مائتين إلى أربعمائة ودعة[3] وقد أفاد كعت أن المثقال من الذهب في تنبكت كان يصرف بثلاثة الآف ودعة في القرن العاشر الهجري السادس عشر الميلادي، عندما دخلت تنبكت، تحت حكم باشوات مراكش. كما أفاد أن عشر ثمرات بخمسة ودعات[4]، وقد أورد هذه الأمثلة كدلالة على توفر السلع وانخفاض أسعارها.

وهذه وثيقة تؤكد أن أهالي تنبكت كانوا يتعاملون بالودع، فقد بعث الحاج محمد البليلي برسالة إلى عثمان بن يوشع قائلاً :«... هذا وأنه من الحاج محمد بن الحاج محمد بن أحمد بن أبي بكر البليلي إلى عثمان بن الحاج محمد ابن أعلى بن يوشع السلام عليك ورحمة الله وبركاته... وموجبه إليك منذ أتاني جوابك في شأن بيع دار الأمة... وأما الدار الصغيرة جعلتها في السوق، وست مائة وثلاثين ألفًا ودعاً...»[5].

(1) سيدي علي بن سيدي محمد بن بك يبعث برسالة إلى منيضا بن أحمد الغدامسي، مخطوط، مركز أحمد بابا التنبكتي، رقم 5486، ورقة .

(2) محمود كعت ، المصدر السابق ، ص130 - 122 ، وعبدالرحمن السعدي ، المصدر السابق، 130 .

(3) عبدالرحمن السعدي ، المصدر السابق، ص158 .

(4) محمود كعت، المصدر السابق، ص ص101 - 182 .

(5) - الحاج محمد بن الحاج محمد بن أحمد بن ابي بكر البليلي، يبعث برسالة تجارية إلى عثمان ابن الحاج محمد بن علي ، مخطوط مكتبة الباحث، دون تصنيف، ورقة واحدة .

النقـود الذهبيـة :

تستعمل النقود الذهبية كعملة تعامل في الحياة اليومية عند أهالي السودان الغربي، فأهل تادمكة كانت عملتهم عبـارة عن دنانيـر، تسمى الصلـع، وهي من الذهب الخالص وغير مختومة[1]، وفي عهد دولة أولاد امحمد بفزان كان التعامل بالدينار الأقديزى بين أقدز وأولاد امحمد بفزان[2].

أما عن العملة في فترة دولة سنغاي، والحكم المغربي للسودان، فكانت عبارة عن دنانير ذهبية من الذهب الخالص ومطبوعة[3].

وافأد السيوطي في سؤال ورد عليه من أحد علماء التكرور بخصوص الدرهم الشرعي، فأورد قائلاً :«أما بعد فإنى تصفحت سؤالك أيها النحرير الهمام فابتدرت بالجواب ... أما قولك ماحقيقة الدرهم الشرعي في النكاح والنصـاب والسـرقـة قلـت حقيقـة في النصـاب وزن خمسـين حبـة وخمـس حبة وخمس حبة من مطلق الشعير ... وفي مائتى درهم شرعي أو عشرين ديناراً فأكثر»[4].

وقد أورد نعيم قداح أن عملات المغرب ومصر كانت متداولة في السودان الغربي، فقد تم العثور على دنانير مغربية، ومصرية في جاو[5]، وهي تدل على التبادل التجاري، بين هذه الدول، ومنطقة السودان الغربي، كما كان النحاس من بين العملات التي تعامل بها أهل السودان الغربي، فقد كان يصنع على هيئة قضبان، طول القضيب شبر ونصف، منها الغلاظ والرقاق. فأربعمائة قضيب

---

(1) - البكري ، المصدر السابق ، ص181 ، والاستبصار ، المصدر السابق ، ص223 .

(2) - عثمان بن علي الحضيري ، أحباس مساجد أقدز، مخطوط مكتبة أبوبكر عثمان الحضيري، بسبها، دون تصنيف، ورقتين .

(3) - عبدالرحمن السعدي ، المصدر السابق ، ص155 ومارمول ، المصدر السابق ، ج3 ، ص203 .

(4) محمد بن عبدالرحمن السيوطي ، يبعث بفتوى لأحد علماء التكرور ، مركز أحمد بابا، رقم 5948 .

(5) - نعيم قداح ، أفريقيا الغربية في ظل الإسلام ، المرجع السابق ، ص128 .

غليط يساوي مثقال ذهب، أما ستمائة قضيب رقيق فمثقال ذهب، واستعملت هذه القضبان لشراء اللحم والحطب والعبيد والذرة والسمن[1].

ويبدو أن التعامل بالنحاس، لم يكن منتشرًا في المنطقة، فقد كان مقتصرًا على بلدان تكدا ونواحيها، وكان سعر النحاس مرتفعًا، خارج تكدا إذ تُباع كل مائة مثقال من النحاس بستة وستين مثقالا وثلثي مثقال ذهب[2].

هذا عن البنية الاقتصادية الذي نهض بها مجتمع سوداني بأكمله بمختلف فروعه.

(1) - ابن بطوطه، المصدر السابق، ص697 .

(2) - القلقشندي، المصدر السابق، ج5، ص291 .

obeikandl.com

obeikandl.com

خاتمة

ختامًا لهذه الدراسة.. فإن الباحث قد توصل إلى عدد من النتائج فى الجانب السياسى والاقتصادى.

1- الجانب السياسى :

1- إن مملكة سنغاى لم تكن القوة الوحيدة فى المنطقة، بل كانت هناك قوى أخرى، هى قبائل الفلان والطوارق والبرابيش.

2- إن أصول عدد من حكام وسكان افريقيا فيما وراء الصحراء، ترجع إلى أصول عربية من اليمن والشمال الأفريقى. وخاصه من ليبيا.

3- إن الملك سنى على هو أقوى شخصية حكمت المنطقة على الإطلاق، من خلال فتوحاته، وتنظيماته الإدارية، وشخصيته القوية، وأن ما نعت به من نعوت ذميمة، مردها إلى أنه لم يلتفت ـ فى كثير من الأمور ـ لآراء بعض شيوخ الدين.

4 - إن موت الملك سنى على كان نتيجة مؤامرة، دبرها قائده محمد تورى (أسكيا الحاج محمد).

5 - إن شخصية أسكيا الحاج محمد لم تكن الشخصية المتميزة من بين الشخصيات، التي حكمت المنطقة، وإنما لمع شخصه بفضل عدد من المؤرخين كمحمود كعت محمد بن وعبدالكريم المغيلي، ففي سبيل حصوله على لقب أمير المؤمنين، وظف أتباعه، ليبلغ هدفه، وفى الوقت نفسه قام بإصلاحات متميزة، جعلته أفضل شخصية عمن جاء بعده.

6 - أثبتت الدراسة أن أسكيا الحاج محمد كان على درجة من الحنكة والدهاء، بتقريبه للعلماء، وإشراكهم فى رسم سياسة الحكم؛ للاستفادة من تجربة من سبقه.

7 - إن لقب أمير المؤمنين الذي منح لأسكيا الحاج محمد فى رحلة الحج، لايخرج عن كونه مجرد اعتراف من خليفة القاهرة، أو أمير مكة بولايته على سنغاي.

8 - أظهر البحث أن هناك أحكاماً، اتخذها حكام السودان الغربى، في فترة سنغاى، لاتمت للشريعة الإسلامية بصلة، وهى خرم الأذن، ثم قطعها وعقاب من يمشى بالنميمة.

9 - أبانت الدراسة أن الدية من بين الأحكام التى كان يقضى بها قضاة المنطقة.

10 - أفصحت الدراسة على أن عدداً من حكام سنغاى وعمالهم، كانوا على درجة من الثراء والبذخ الزائد، على حساب الرعية.

11 - توافر لسنغاى جيش قوى استطاع تأديب الخارجين عن طاعته، وله وسائل تمويل بعكس ما ذهب إليه جل المؤرخين، الذين يقولون أن القبائل هى الممول الوحيد للجيش.

12 - إن حركة التوسع التى قام بها أسكيا الحاج محمد، لم تكن كلها تهدف إلى نشر الإسلام، بقدر ماهو مخطط سياسى.

13 - أفادت الدراسة أن لدى ملوك سنغاى سجوناً يمارسون فيها التعذيب.

14 - بينت الدراسة أن هناك انحطاطاً أخلاقياً وسلوكياً فى البيت الحاكم، متمثلة فى أسرة أسكيا الحاج محمد، وإقصائه عن الحكم بطريقة سيئة.

15 - أفصحت الدراسة أن ملوك سنغاى، ابتداءً من أسكيا موسى إلى أسكيا إسماعيل، كانوا ضعافاً.

16 - كشفت الدراسة أن الحضور المغربي قديم بقدم الزمن فى المنطقة.

17 - أماطت الدراسة اللثام على أن نهاية سنغاى لم تكن على يد المغاربة، ولكن مما كانت تعانيه المنطقة من حالة الفوضى والتناحر داخل الأسرة الحاكمة، الذى انعكس بدوره على المحيط الخارجى.

18 - اتضح بجلاء أن التدخل المغربى فى السودان الغربى، كان أحد أسبابه حالة الفوضى التى شهدتها المنطقة، وليس لملاحة تغاز، ولا ذهب ونقارة وبنبوك، فالملح والذهب معروفان لدى المغاربة قبل الدولة السعدية بكثير.

19 - أفادت الدراسة أن ما أقدم عليه السلطان المنصور الذهبى بسرعة التدخل فى السودان الغربى، ينم عن أفق سياسى واسع لأنه لو لم يتدخل لتم الإطباق عليه، من الركن الجنوبى، بعد أن كان الركن الشرقى والغربى شبه مطبق، وبذلك فوت الفرصة على الأعداء، وجعل منهجه وتكتيكه العسكرى منهجاً استفاد منه من جاء بعده.

20 - أظهرت الدراسة أن جلّ آراء السودانيين التى تمكنت من الإطلاع عليها، من خلال المخطوطات القديمة، تعتبر أن الحملة أنقذتهم مما أصابهم من فساد وانحطاط من جراء حكم الأسكيين، بل هناك من اعتبرها جهاداً.

21 - كشفت الدراسة الميدانية للمنطقة أن هناك كثيراً من المغالطات التاريخية، وقعت فيها بعض المصادر السودانية المهمة حول الحملة المغربية على السودان الغربى، مثل محمود كعت.

22 - أثبتت الدراسة أن أحمد بابا التنبكتى كان على علاقة بالبلاط المغربى، قبل مجيئه للمغرب.

23 - أفصحت الدراسة على أن الرسائل السياسية المهمة كانت تكتب فى أوراق صغيرة، حتى يتمكن حاملها من إخفائها.

24 - أظهرت الدراسة الميدانية أن المغاربة شيدوا مقراً لحكمهم فى مدينة تنبكت.

25 - أبانت الدراسة أن هناك ممارسات خاطئة لبعض قادة وجنود الحملة، إلا أن هذه الممارسات لم تكن على علم من السلطان المنصور الذهبى، والدليل على ذلك عزله لمرتكبيها.

26 - توصلت الدراسة إلى أن وفاة عدد من قادة الحملة المغربية فى السودان الغربى، كانت نتيجة لمؤامرات القائد جودر باشا.

27 - أظهرت الدراسة أن وجود المغاربة تركز فى أهم مدن المنطقة تنبكت وجاو واقدز، وسكنوا فى أحياء مازالت أثرها إلى اليوم.

28 - أثبتت الدراسة أن المغاربة عملوا على تطوير المنطقة حضارياً واقتصادياً، وأدخلوا دماء جديدة، اندمجت مع السكان الأصليين، وتقلدوا أرفع المناصب، ومازالوا كذلك بالمنطقة الى يومنا هذا.

29 - أفصحت المعطيات أن قبائل الطوارق من بين الموجات البشرية الأولى، التى قدمت من اليمن، وأن استقرارها فى المنطقة جعلها تختط لنفسها تنظيمات وتقسيمات سياسية واجتماعية محكمة.

30 - كشفت الدراسة أن قبائل الطوارق مثلت ثقلاً سياسياً واقتصاديـًّا واجتماعياً يحسب حسابه، وأن أى مملكة أو إمبراطورية فى المنطقة لاتقوم لها قائمة مالم تكسب ود الطوارق.

31 - أفادت الدراسة من خلال المعطيات أن قبائل الفلان ترجع جذورها إلى جيش القائد العربى عقبة بن نافع الفهرى، الذى وصل إلى نهر النيجر.

32 - أثبتت الدراسة أن لقبائل الفلان تنظيمات سياسية، مكنتها من الاستمرار، وممارسة دورها السياسى فى المنطقة بكثرة غزواتها، حتى أن هناك ممراً فى نهر غمبيا يعرف بمر الفلان، وأن جزءاً من المنطقة يقع تحت رحمتها.

33 - كشفت الدراسة أن قبائل البرابيش لها ثقلٌ سياسىٌ واقتصادىّ واجتماعىٌ، مكنها فى الاستمرار فى منطقة السودان الغربى بجدارة، وأن عدداً من حكام سنغاى كانوا يبرمون مع زعمائها اتفاقيات حسن الجوار.

34 - أفصحت الدراسة على أن قبائل البرابيش لها تنظيمات وتقسيمات سياسية

واقتصادية وحضارية، داخل أفخاذها، على درجة من الدقة.

35 - ظهر من خلال الدراسة أن ائتلاف أفخاذ البرابيش ائتلاف عرقى، ولم يكن سياسياً، كما يورد عدد من المؤرخين.

36 - بينت الدراسة أن عدداً من أفخاذ البرابيش، لها امتدادات فى المغرب وليبيا.

2 - الجانب الاقتصادى:

37 - أثبت الدراسة خصوبة الراضى وعذوبة المياه فى السودان الغربى، الأمر الذى جعلها تشهد نهضة زراعية ملحوظة بكثرة المزارع الخاصة والعامة، وتنوع منتوجاتها من حبوب وفواكه، ولذلك أسهم المغاربة فى الأخذ بها، وهذ ما أثبتته الوثائق.

38 - اهتمام أهالى المنطقة بالزراعة نلمسه من خلال رسائلهم.

39 - كانت زراعة الكروم موجودة فى المنطقة وخاصة فى مدينة أقدز، وكان قد تم دخولها كانت عن طريق ليبيا.

40 - أوضحت الدراسة انتشار غرس شجرة الزيتون فى المنطقة، وخاصة فى مدينة سهل، وأنها دخلت عن طريق الأندلس.

41 - أفادت الدراسة أن منطقة السودان الغربى كانت تحتوى عل ثروة حيوانية برية ومستأنسة، كان مردها إلى خصوبة المنطقة وكثافة أشجارها.

42 - بَيَّن البحث تربع أهالى السودان الغربى على ثروة معدنية متنوعة، فى مقدمتها الذهب والملح.

43 - أثبتت الدراسة ازدهار الصناعة فى المنطقة، وخاصة صناعة النسيج والسفن.

44 - أفادت الدراسة عمق العلاقات الاقتصادية بين السودان الغربى، وأهم المراكز

التجارية بالشمال الأفريقى - المغرب وليبيا.

45 - أبانت الدراسة تنوع السلع المتبادلة بين السودان الغربى والمغرب وليبيا.

46 - توصلت الدراسة إلى كثرة المراكز التجارية على جانبى الصحراء الشمالى والجنوبى.

47 - خلصت الدراسة إلى ازدهار حركة التجارة فى فترة الحضور المغربى بالسودان الغربى، وما أحدثه المغاربة من تشجيع للتجار بضيافتهم فى بيوتهن وتأمين الحماية لهم.

48 - أثبتت الدراسة وجود عملة فى عهد الأسكيين، مكتوب على وجهها الأول عبيد الله، وعلى الوجه الثانى توكلنا على الله.

49 - أفادت الدراسة أن العملة المغربية فى عهد السعديين، كانت من ضمن العملات التى يتعامل بها أهالى السودان الغربى.

50 - توصلت الدراسة الى أن وحدة الوزن والطول، التى كانت يتعامل بها أهالى السودان الغربى مغربية الأصل.

وفى الختام نكرر الدعوة إلى إعادة كتاب تاريخ أفريقيا برؤية جديدة وبمنهج تحليلى نقدى استنباطى بعيدًا عن المنهج السردى الذى أخرنا وجعلنا لانستفيد من دراسة التاريخ.